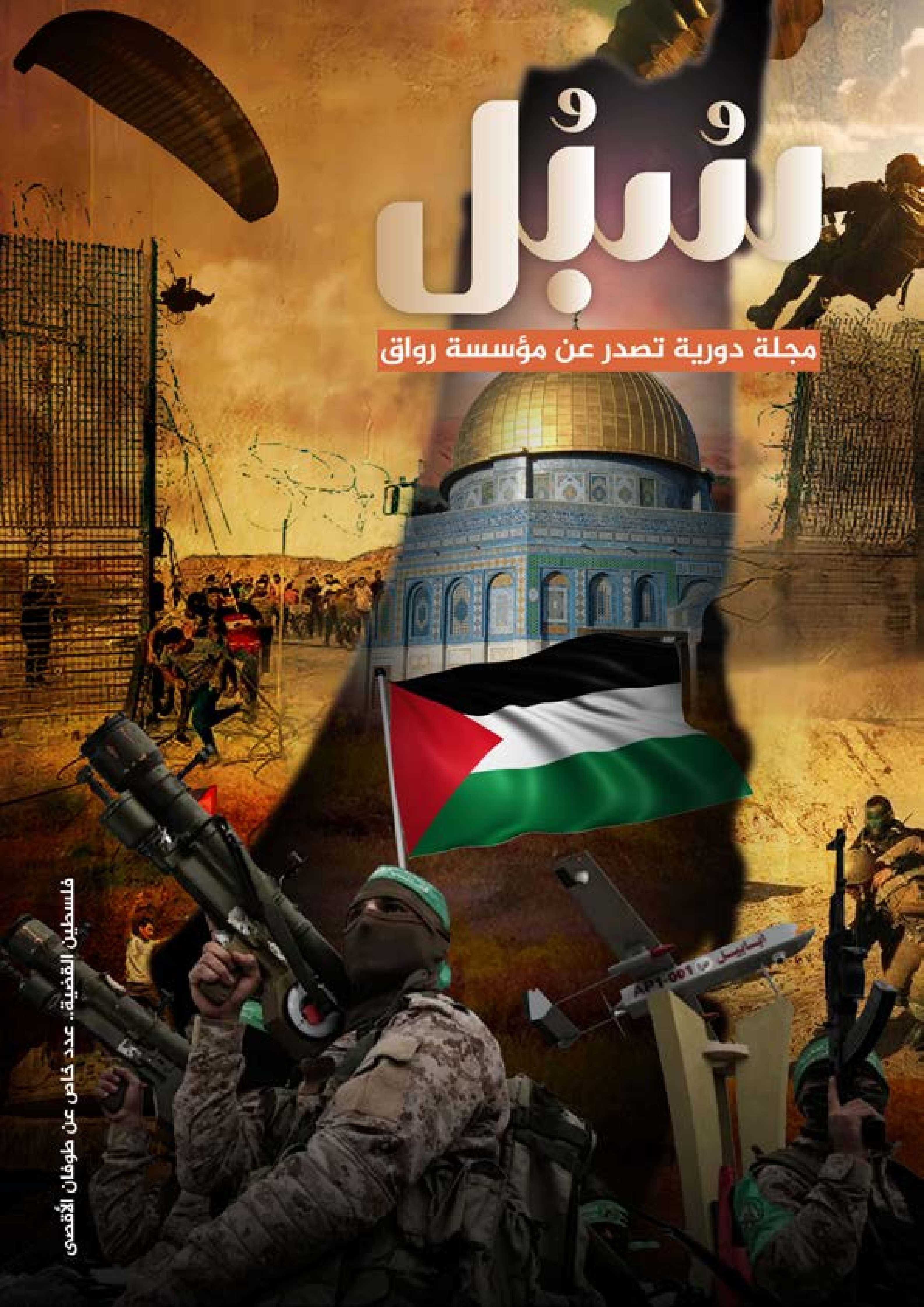

سُبُل
مجلة دورية تصدر عن مؤسسة رواق
أبابيل
فلسطين القضية.. عدد خاص عن طوفان الأقصى

المحتوى

كتاب العدد

رئيس التحرير
محمد عباس

أحمد عبدالحليم

باحث مصرى فى قضايا الاجتماع

مصعب السيار

باحث فى الدراسات الاستراتيجية



رضوان الأخرس

كاتب وإعلامي، باحث بالحوكمة الرقمية

يوسف الدموكي

كاتب

محمود العناني

صحفي ومنتج وثائقي

افتتاحية العدد

تعيش أمتنا اليوم لحظات فارقة، تلكم القضية المركزية وفوق القطرية لأمتنا أحيت من جديد، ولكن هذه المرة بشكل مختلف تماما عن كل المرات السابقة، ليس الأمر عبارة عن بكائيات لاعتداءات الصهاينة على المسجد الأقصى، ولكن شهدنا حدثا عجيبا؛ اختارت المقاومة وقت بدء المعركة، وفاجأت العدو من حيث ظن أنه في مأمن.

تتابعنا في الوقت الحالي شاشات التلفاز بضربات مؤلمة لغزة والضفة، وأيضا بضربات توجهها المقاومة للمستوطنات، وحينها نتذكر قوله تعالى "إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون"(النساء: 104).

إن ما يحدث يجدد لدينا الأمل أن جذوة التغيير والتحرر لم تنطفئ ولن تنطفئ بإذن الله، مهما حاول المستبدون والمحتلون ومن عاونهم.

كان العدد الثاني لمجلتنا متزامنا مع معركة سيف القدس وكان مخصصا للحديث عن هذه المعركة والربيع العربي؛ وذلك لإيماننا العميق أن هناك ارتباطا وثيقا بين الظاهرتين، وأن الاستبداد والاحتلال وجهان لعملة واحدة في هذا العدد الخاص نعيد نشر بعض المقالات التي نشرت سابقا عن القضية الفلسطينية، بالإضافة لمقالين جديدين

حيث يصحبنا مصعب السيار في تحليل استراتيجي عميق لمعركة طوفان الأقصى، مبينا أهمية عنصر المفاجأة في العلوم العسكرية والاستخبارية، وطارحا أسئلة هامة حول التعامل السياسي مع الإنجاز العسكري الذي تحقق في يوم السابع من أكتوبر.

فيما يحدثنا يوسف الدموكي عن صمت الخذلان وحديث الحياد، مركزا على نموذج لاعب الكرة محمد صلاح، كما يكشف لنا الدور الذي تلعبه الإمارات في السيطرة على المحتوى الذي يقدمه كثير من مؤثري وسائل التواصل الاجتماعي.

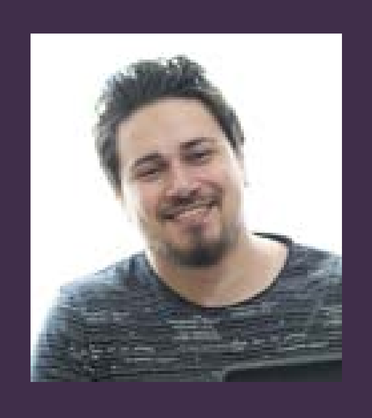
ويشرح لنا بالتفصيل رضوان الأخرس معركة أخرى تدور رحاها على صفحات فيسبوك وتويتر وانستجرام حيث تواجه الرواية الفلسطينية تحديات صعبة، فيما يسمح لرواية المحتل بالنفاذ والوصول لملايين البشر وليس بعيدا يستعرض محمود عناني دور وسائل الإعلام الغربية في تبني سردية المحتل، مسلطا الضوء على الجهد الذي يوجهه العدو لتحقيق هذا الهدف.

وختاما، يأخذنا أحمد عبد الحليم في رحلة بين الكتب، متأملا موقع القضية الفلسطينية في الشعر المصري، على مدى 3 أجيال مختلفة.

اقرأ وشاركنا أفكارك


طوفان
الأقصى:
المفاجأة الاستراتيجية
وتناقضات الحرب

طوفان الأقصى: المفاجأة الاستراتيجية وتناقضات الحرب



مصعب السيار

باحث فى الدراسات الاستراتيجية

عندما أكون محروما من المشاركة في الأحداث العظيمة كالتي يدور رحاها في فلسطين الحبيبة، أسعى إلى التفاعل معها ولو بالبحث والتحليل وذلك للإفادة العلمية بعيدا عن التنظير البارد والمنعزل عن السياق، خاصة أن التجربة البشرية متصلة، والآثار متعدية وأن الملكة الاستراتيجية تنضج بالعديد من الأمور، لعل من أهمها دراسة التاريخ والحملات كما ذكر نابليون وسفيتشن.[1]

كما أننا نحتاج بجانب أنواع الدعم المختلفة إلى الإفادة الجادة والمنهجية مما يحدث، وهذا أقدس حقوق التضحيات. ولذلك استعرض اي الجزء الأول من المقال مقدمة نظرية عن مستويات المفاجأة في الحرب وأنواعها، وكذلك طبيعة المفاجأة في الحروب وتأثيرها والمراحل التي تمر بها، وفي الجزء الثاني ينتقل الحديث إلى معركة طوفان الأقصى على وجه التفصيل.

[1] Svechin, a. strategy. Canada, East View Information Services,1991, pp.91-93

[2] JWP 0-01, British Defense Doctrine (Fifth edition). 2014, pp.19-21; and Colin S. Gray, The Strategy Bridge: Theory for Practice. Oxford University Press, 2011, pp.43-44.

[3] JDP 2_00, Joint Doctrine Publication (Ed4_web), P29; and JP 2-0, Joint Intelligence, P.23



مستويات المفاجأة في الحرب وأنواعها

كما هـو في المذاهـب العسـكرية والأدربيـات الاسـتراتيجـيـة،تُعد المفاجأة فيالحرب أحد موضوعات الاستخبارات، و لفهمها هي والاستخبارات نحتاج أولا توضيح المستويات التي تتكون منها أي حرب وأي صراع عامة وهي:

المستوى الاستراتيجي:

وظيفته الأساسية كسر أو السيطرة على إرادة الخصم عن طريق استخدام أو التهديد باستخدام أدوات القوة وذلك لتحقيق أهداف السياسة. إذ الحرب وأدواتها مجرد وسيلة للسياسة.

المستوى العملياتي:

مستوى التنفيذ الفني الأعلى سواء كان عسكريا أو غيره - حسب الأداة المعنية - وفيه تنتظم كامل المعارك الصغيرة لتحقيق نهاية فنية معينة. بينما المستوى السابق يحقق نهاية سياسية

المستوى التكتيكي:

الميدان المباشر وأبسط مستوى من مستويات الصراع[2].

وكما هو موضح في دليل الاستخبارات المشتركة البريطاني والأمريكي[3]، تنقسم الاستخبارات إلى مستويات. كل مستوى مرتبط بأحد مستويات الحرب، بالتالي تكون المفاجأة حسب مستويات الحرب أيضا فهناك:

1. مفاجـأة استراتيجـيـة: على المستوى الاستراتيجي للحرب ومن أمثلتها مباغتة العدو بالحرب أو المعاهدات المفاجئة وتغيير التحالفات الخ.

2.مفـاجـأة عمـليـاتيـة: على المسـتـوى العملياتـي وتكـون بالمفاجـأة في مـحـور أو مـكـان

الهجوم والانتشار العسكري أو في اختيار مسرح العمليات أو في طريقة استخدام القوات والأسلحة على مستوى المسرح.

3.مفاجأة تكتيكية: عبر الكمائن والإغارات وتطوير الأسلحة المضادة وغيره.

وتكون وظيفة الاستخبارات في كل مستوى هي:

1. تزويد صناع القرار بإمكانات ونوايا الخصوم.
2. وفي نفس الوقت تمويه وخداع الخصوم حول ما لدينا من إمكانات مادية وما ننويه من أهداف وخطط ومكافحة استخباراتهم.

أخيرا ينبغي إيضاح أن العلاقة بين البراعة[4] الاستخبارية والمفاجأة ليست حتمية لأن الحرب، كما أوضح كلاوزفيتز بشكل بارع، مليئة بالصدف والعوامل غير المسيطر عليها والتي لا يمكن حسابها مسبقا. فضلا عن استحالة معرفة كامل تفاصيل المشهد ولابد من جزء ضبابي يحتاج من القائد إلى مزيج من الحكم الشخصي والمخاطرة المبنية على فهم عميق للخصم بكامل جوانبه التي "تتجاوز كثيرا مجرد الحساب العسكري[5]".

نظرا لأهمية المستوى الاستراتيجي عن باقي المستويات الأدنى وطبيعة ما حدث في طوفان الأقصى سنقتصر في الجزء المتبقي على المفاجأة الاستراتيجية.

طبيعة المفاجأة وتأثيرها

"رغم أن المفاجأة كانت دائما ممكنة على المستوى التكتيكي، إلا أن جدواها على المستوى الاستراتيجي تمثل ظاهرة تاريخية جديدة نسبيا في القرن العشرين" هاندل[6]

تاريخيا كان هناك تباين في الموقف من الاستخبارات ككل وحول المفاجأة الاستراتيجية تحديدا، فرغم تبني المنظرين الأوائل مثل صن تزو للاستخبارات والتعظيم الشديد لدور الخداع والمفاجأة الاستراتيجية، تبنى كلاوزفيتز وجوميني موقفا معاكسا تماما في الحرب البرية،

> **"العلاقة بين البراعة الاستخبارية والمفاجأة ليست حتمية لأن الحرب مليئة بالصدف والعوامل غير المسيطر عليها، لذا يحتاج القائد إلى مزيج من الحكم الشخصي والمخاطرة المبنية على فهم عميق للخصم بكامل جوانبه التي تتجاوز كثيرا مجرد الحساب العسكري"**



[4]on War, by Carl von Clausewitz (Author), Beatrice Heuser (Editor), P65.

[5]M.Boraik,https://www.youtube.com/watch?v=fj6_mLNZnVo

[6]Paradoxes of Strategic Intelligence, RK Betts, T Mahnken - 2004, P.3

[7]RK Betts, T Mahnken, ibid, p.3

[8]Masters of War: Classical strategic thought, Handel, P.176

[9]Handel, ibid, p.172

[10]Handel, ibid, p.174

على عكس نيلسون في الحرب البحرية[7].

سبب ذلك النفور هو الانفجار في حجم الجيوش في العصر الحديث بداية من الحقبة النابليونية وما تبع ذلك من:

1. التباين بين حجم الجيوش وسرعتها[8] في التحضير للحرب أولا ثم في الانتشار والهجوم ثانيا، إذ يمكن للمدافع الانتباه والاستعداد قبل أن يتمكن المهاجم من مباغتته.
2. ضعف نظم التواصل والقيادة والسيطرة[9] C3، بالمقارنة مع حجم الجيوش، سواء من حيث البطء في إرسال الأوامر واستقبال الأخبار عبر المساحات الواسعة أو من حيث تأمين هذه العملية بشكل عام.
3. استحالة رفع الواقع الميداني بشكل يسمح باتخاذ قرارات أو ما يُسمى بالاستخبارات في الوقت الفعلي[10] **Real-time intelligence.**

باكتشاف السكك الحديدية ثم محركات الاحتراق وانتهاء بظهور الدبابة والمركبات الحديثة انتقلت مرونة وسرعة الجيوش إلى مستويات جديدة تماما. أعقب ذلك ظهور الطائرات بالتزامن مع القوة النارية المرعبة ثم الاسلحة النووية وانتهاء بالتعطيل السيبراني والطائرات المسيرة والمركبات غير المأهولة مما جعل المفاجأة ليست فقط ممكنة بل الاحتمالات في صالحها كما يوضح السجل التاريخي.

إذ يظهر ذلك في حروب الدنمارك والنرويج عام 1940؛ بيرل هاربور والفلبين عام 1941؛ روسيا عام 1941؛ كوريا عام 1950 والتدخل الصيني في وقت لاحق من ذلك العام؛ الهجوم الصيني على الهند عام 1962؛ تشيكوسلوفاكيا عام 1968؛ حرب أكتوبر عام 1973؛ الغزو الصيني لفيتنام عام 1979؛ جزر فوكلاند عام 1982؛ الكويت عام 1990؛ برج التجارة في أمريكا عام 2001 وغير ذلك الكثير[11].

وسبب ذلك هو الفجوة الضخمة التي أحدثتها قدرات التدمير الهائل والسريع لتكنولوجيا الحرب المعاصرة دون تغيير جوهري في تخمين والحكم على نوايا البشر





الذي سيظل ضبابيا إلى الأبد.

فرغم تطور الاستخبارات في جمع المعلومات وتطور تكنولوجيا المراقبة الإلكترونية وأجهزة الاستشعار عالية الطاقة والأقمار الصناعية إلا أن (عملية التحليل) لهذا الكم الهائل من البيانات والحكم النهائي ظلت بشرية تماما، بما في البشر من أمراض الغرور والوهم والتفكير بالتمني والتحيزات المعرفية والتنظيمية والعرقية[12] فضلا عن مدى قبول السياسيين لنتائج هذا التحليل كما أثبتت معظم تحقيقات الفشل الاستخباري.

المشكلة لم تكن في وجود المعلومة ولكن في العثور عليها، مشكلة الاستخبارات الحالية هي في التحليل الاستخباري **intelligence analysis** وليست في جمع المعلومات الاستخبارية **intelligence collection**[13].

طريقة العمل: تأثير المفاجأة ومراحلها

تعمل المفاجأة كمضاعف للقوة **Force multiplier** وتعويض للضعف: "المزايا التي يمكن الحصول عليها من تحقيق المفاجأة الاستراتيجية لا تقدر بثمن، حيث يسهل تدمير جزء كبير من قوات العدو بأقل تكلفة على المهاجم عن طريق اختلال التوازن النفسي للمدافع، وبالتالي تقليل مقاومته مؤقتًا، الجانب الأدنى عدديًا قادر على أخذ زمام المبادرة من خلال تركيز القوى المتفوقة في الوقت والمكان الذي يختاره، وبالتالي تحسين احتمالية تحقيق نصر حاسم بشكل كبير"[14].

التأثير النفسي: "المفاجأة بطبيعتها هي حدث مؤلم نفسيًا، وليس مجرد حدث مادي، حيث تقوم الصدمة بتشكيل

على الرغم من أن المفاجأة الاستراتيجية في التاريخ العسكري الحديث نادرًا ما تفشل، فإن مفاجأة العدو في حد ذاتها لا يعني بالضرورة تحصيل المهاجم لأقصى الفوائد الممكنة أو أنه سيضمن النصر النهائي

[11] Intellige nce Power in Peace and War, Michael Herman, p.222
[12] Paradoxes of Strategic Intelligence, RK Betts, T Mahnken - 2004, P.5
[13] M. Borik, https://strategic-exploration.org/2019/08/24/على-هامش-كتاب-عن-الحرب-لكلاوزفيتس-الح-2/
[14] Paradoxes of Strategic Intelligence, RK Betts, T Mahnken - 2004, pp.1-2
[15] Charles B. Vandepeer, https://thestrategybridge.org/the-bridge/2020/10/27/surprise-and-shock-in-warfare-an-enduring-challenge
[16] MCDP 1 Warfighting Navy doctrine, 1997, p.43
[17] Military Strategy: A General Theory of Power Control, Joseph Wylie, Jr, p.81
[18] Paradoxes of Strategic Intelligence, RK Betts, T Mahnken - 2004, p.2
[19] Army Doctrine Publication (ADP) 6-0, Mission Command.
[20] Paradoxes of Strategic Intelligence, RK Betts, T Mahnken - 2004, p.2
[21] RK Betts, ibid, p.2

الاستجابات المعرفية والعاطفية، الفردية والجماعية"[15]. وفي بعض الحالات يمكن للمفاجأة "في حال كانت قاسية بما فيه الكفاية، أن تؤدي إلى الصدمة وانعدام القدرة التام، ولو بشكل مؤقت"[16].

هذا التأثير يعطي مقود الحرب والمبادرة للمهاجم ويوفر مساحة من السيطرة المبدئية والتي باستغلالها يمكن كسب الحرب كما أوضح جيسي وايلي: "الهدف من أي حرب هو تحقيق قدر من السيطرة -تختلف حسب السياق- على العدو"[17].

يمكن تقسيم المفاجأة الاستراتيجية إلى مرحلتين[18]: **الأولى** هي مرحلة الهجوم وشن الحرب عن طريق تركيز المهاجم لقواته بشكل سريع لإحداث صدمة نفسية واختراقات مادية، يكون للمهاجم في هذه المرحلة أفضلية كبيرة مع ما وفرته التكنولوجيا من قدرة على التنقل والتواصل السريع بحيث من يتحرك أولا يفوز، حتى إن المدافع كثيرا ما يدرك نوايا الهجوم لكن بعد فوات الأوان إذ يحتاج منه الأمر إلى أيام وربما أسابيع من التجهيز المضاد.

في المرحلة الثانية يصبح هدف المهاجم استغلال الاختراق ما أمكن والإفادة من الثغرات التي تنكشف تبعا بسبب اختلال توازن الخصم، والأهم بالاستغلال هنا المستوى الاستراتيجي وليس مجرد المستوى العسكري العملياتي. بحيث يتم استدامة السيطرة على الخصم وإدامة المبادرة الاستراتيجية.

ولتحقيق ذلك لابد من تخطيط تفصيلي مسبق، أو تدريب القوات على المبادرة وإمكانية الارتجال ضمن رؤية شاملة في نمط قيادة يُسمى القيادة بالمهام[19].

تناقضات الحرب

"على الرغم من أن المفاجأة الاستراتيجية في التاريخ العسكري الحديث نادرًا ما تفشل، فإن مفاجأة العدو في حد ذاتها لا يعني بالضرورة تحصيل المهاجم لأقصى الفوائد الممكنة أو أنه سيضمن النصر النهائي[20].

أحد أسباب هذا التناقض "هو أن المهاجم غالبًا ما يكون مندهشًا من فعالية هجومه بشكل يجعله غير مستعد لاستغلال فرص الهجوم بشكل كامل. على سبيل المثال، لم يتابع اليابانيون نجاحهم في بيرل هاربر بهجمات متكررة على مستودعات النفط الأمريكية وغيرها من المنشآت البحرية والجوية في هاواي، ولم يستغل الحلفاء الفرص التي نتجت عن هبوطهم المفاجئ في أنزيو، وينطبق الشيء نفسه على الجيشين المصري والسوري في هجومهما على إسرائيل عام 1973"[21].

> يظهر في التاريخ المعاصر السهولة النسبية في شن الحرب دون إنذار ومفاجأة الخصم بشكل قاسي، يكمن التحدي الحقيقي في إمكانية استغلال هذه الضربة الأولى للوصول لنقطة يصبح الدفاع عنها أسهل وانتزاع المكاسب المحققة أصعب

ومن أهم أسباب ارتباك المهاجم هو التداعيات والمستجدات السياسية على المشهد ككل، سواء في نظرة الخصم المدافع للصراع أو ما يحدث من تفاعل الأطراف الخارجية -الإقليمية والدولية- مع التغير الهائل المحتمل. مهم هنا فهم أن الفائدة الاستراتيجية للمفاجأة تنهار إذا لم ينجح الانتقال من المرحلة الأولى إلى الثانية.

طوفان الأقصى

"*إن حماس منضبطة للغاية وتتفهم عواقب المزيد من التحدي*"

تساحي هنغبي - مستشار الأمن القومي الإسرائيلي قبل 6 أيام من الهجوم

بغض النظر عن عدم وضوح كثير من التفاصيل الفنية بعد، لكن الأكيد والمحوري في نجاح وتأثير الهجوم هو ما تم من خداع على المستوى السياسي والاستراتيجي وهذا أصعب نقطة في الخداع، القيام بخدعة يريد عدوك تصديقها وهي الفيصل في نجاح المفاجأة لأن الأمر في النهاية متوقف على قبول الخدعة، بمعنى أن نجاح المفاجأة متوقف على قرار العدو.

لتفصيل ذلك الخداع نحتاج أن نسترجع شكل الصراع بين إسرائيل وحماس في العشر سنوات الأخيرة حيث انتهى إلى نوع من معادلات الردع والمناورات دون مستوى الحرب بحيث تحاول حماس تأمين القطاع وتطوير إمكانياتها العسكرية، بينما تقوم إسرائيل[22] بشن عمليات عسكرية دون مستوى الحرب لتقليم قدرات الحركة مع الحفاظ على وضعها معزولة عن باقي فلسطين وتوريط المقاومة في إدارة القطاع ومشكلاته.

ترسخ هذا التصور لدى إسرائيل بعد معركة سيف القدس عام 2021 بسبب موقف حماس من الاشتباكات بين إسرائيل والجهاد الإسلامي في أغسطس 2022 ويونيو 2023 حيث تركت الجهاد الإسلامي تخوضها وحيدة رغم ردود الأفعال الساخطة بشدة في الشارع الفلسطيني، ما رسخ فكرة أن حماس تم ردعها بالفعل بسبب خسائر "سيف القدس" وأنها لا ترغب في مجرد الاشتباكات فضلا عن حرب واسعة وتغيير الوضع القائم بل تسعى للتطوير الذاتي والانتعاش الاقتصادي للقطاع.

تُسمى هذه الظاهرة بخلل التصور الاستخباري **in-telligence concept** وهو أن يكون هناك مفهوم كلي -منطقي للغاية- يتم رؤية المعلومات من خلاله. هذا المفهوم لا غنى عنه في التحليل الاستخباري ولكن تحدث المشكلة عند الالتصاق به أكثر من اللازم بشكل يمنع رؤية البيانات الجديدة بشكل سليم وهذا المرض منتشر بشدة في أجهزة الاستخبارات.

من الظواهر التاريخية لهذا الفشل حرب أكتوبر 1973 لاعتقاد إسرائيل بعدم استعداد مصر لخوض حرب في ظل تباين هائل في السيطرة الجوية، وفشل ستالين في الاستجابة للتحذيرات من الغزو النازي اعتقادا منه بوجود مصلحة مشتركة قوية.

تزامن هذا الإشكال في التصور السياسي والاستخباري مع تدهور الداخل الإسرائيلي لدرجة غير مسبوقة منذ عقود وصاحب ذلك كله انفجار المقاومة في الضفة لأول مرة منذ عزل حماس في القطاع عام 2007.

كل هذا جعل أولويات الاستخبارات الإسرائيلية تنتقل بعيدا عن غزة. لكن، مجددا، السبب الأساسي في هذا الانتقال هو تقدير إسرائيل لحماس سياسيا واستراتيجيا.

عند قراءة وقائع الهجوم يظهر جليا ما قررناه سابقا من تأثير المفاجأة، حيث تمكنت المقاومة من اكتساح مساحة وقوة عسكرية كبيرة لا تتناسب مع حجم القوة المهاجمة (المفاجأة كمضاعف

للقوة) وبالمقابل كان رد الفعل الإسرائيلي أقل من مستواه الفعلي بكثير (التأثير النفسي للمفاجأة).

أبرز الأمثلة على هذا التأثير النفسي كان تأخر الاستجابة والغطاء الجوي لساعات رغم اشتهار الجيش الإسرائيلي بلامركزية الطيران وسرعته في جميع أنماط الحرب عموما، بالإضافة لخبرته الكبيرة في الحرب غير النظامية تحديدا وما تقضيه من استجابة ودعم جوي تكتيكي سريع ومرن للغاية.

من ناحية أخرى لابد من تذكر أن الشق الثاني من المفاجأة الاستراتيجية (الاستغلال) ليست واضحة للغاية لدى المقاومة. جزء من ذلك بسبب نقص المعلومات حول الأهداف السياسية -الحقيقية- والاستراتيجية، لكن هذا النقص لا يفسر ذلك كل شيء، إذ هناك فجوة واضحة بين الضربة وبين طريقة استغلالها استراتيجيا وسياسيا.

لفهم هذا الأمر لابد من الرجوع مرة أخرى لمبادئ الحرب، يقتضي الهجوم المبادرة كما يوجد لكل هجوم زخم حتى يصل للذروة وحينها يتحول المهاجم للدفاع. ما حدث في 7 أكتوبر هو نجاح استثنائي وهائل في المبادرة وكسب الزخم وتحقيق قدرة من السيطرة على الخصم، بالتالي لابد من التساؤل حول سبب التخلي عن المبادرة وكل هذا الزخم دون إرساء عتبة واضحة -ولو فقط من الناحية السياسية والدبلوماسية والتوظيف الإعلامي للحدث- بدلا من التحول إلى رد الفعل وترك المشهد في حالة من الضبابية.

بالتأكيد لا نزال في غمار الحدث، وحتى الآن فالمكاسب الاستراتيجية للمقاومة جمة لكن التساؤل هو حول طريقة إكمال الهجوم والصراع ككل والتي لا تبدو واضحة حتى الآن، خاصة مع ترك المبادرة طوعيا وتوفير مساحة رد فعل ضخمة للإسرائيلي بسبب كسر المقاومة لكل المعادلات السابقة مما شجّع العدو على التخلي عن حساباته وحساسيته تجاه خسارته النسبية والتي هي جوهر الحرب غير النظامية.

الاستفهام الحقيقي هنا هو عن الاتجاه والأفق السياسي والاستراتيجي الذي يحتضن هذه العملية العسكرية الجديدة والذي من المفترض أنها تدعمه. ولعل بسبب هذا الفراغ كان هناك تباين كبير بين حراك الضفة والداخل الفلسطيني -خاصة في الأيام الأولى- مقارنة بمستوى المعركة بشكل عام.

هذا الفراغ لا تفسره الفوارق النسبية في القدرات والإمكانات، بدليل ردة فعل الضفة والداخل في معركة سيف القدس، الأفضل كثيرا، بسبب توجه المقاومة السياسي الواضح والسردية (قصة الجولة) الجليّة. كما أن الأداء الإعلامي والخطاب سواء للحاضنة الواسعة عربيا أو للبيئات الدولية معبّرا أيضا عن هذا الاستفهام.

لتلخيص الأمر: يظهر في التاريخ المعاصر السهولة النسبية في شن الحرب دون إنذار ومفاجأة الخصم بشكل قاسي، يؤدي ذلك بطبيعة الحال لزعزعة في قوات الخصم واستحواذ على المبادرة على المستوى الاستراتيجي للحرب. يكمن التحدي الحقيقي في إمكانية استغلال هذه الضربة الأولى للوصول لنقطة يصبح الدفاع عنها أسهل وانتزاع المكاسب المحققة أصعب، من هذا الجانب تظهر التجربة التاريخية نجاحات أقل وهذا هو محل النظر حاليا في فلسطين. وما سيخبرنا عنه الصراع.

[21] "IDF Strategy Documents 2018-2022: On processes, Chiefs of Staff, and the Defense Forces," Al-Dado Center, November 4, 2020.


محمـد صلاح وآخـرون..
عـن الألسنــة التـي
أكـلتهـا القطــة!

محمد صلاح وآخرون..
عن الألسنة التي أكلتها القطة!



يوسف الدموكي

كاتب

في أوقات المعارك يختار كلٌّ موقعه؛ الميمنة أو الميسرة، المقدمة أو المؤخرة. وقد لا تكون هناك رفاهية الاختيار فيبقى كلٌّ في مكانه المقدر له؛ حتى ينال شرف المعركة، ونبل المواجهة، لكن يبقى كثيرون ليسوا من قوام الجيش، ولا هم في قوات الاحتياط، يمنعهم المكان والظروف من الحضور، وتحول بينهم وبين المشاركة آلاف الأسباب، فيبحثون حولهم عن أي شيء، ولو أن يكسروا حاجزًا ببلطة، أو أن يبنوا متراسًا بذرات الغبار.

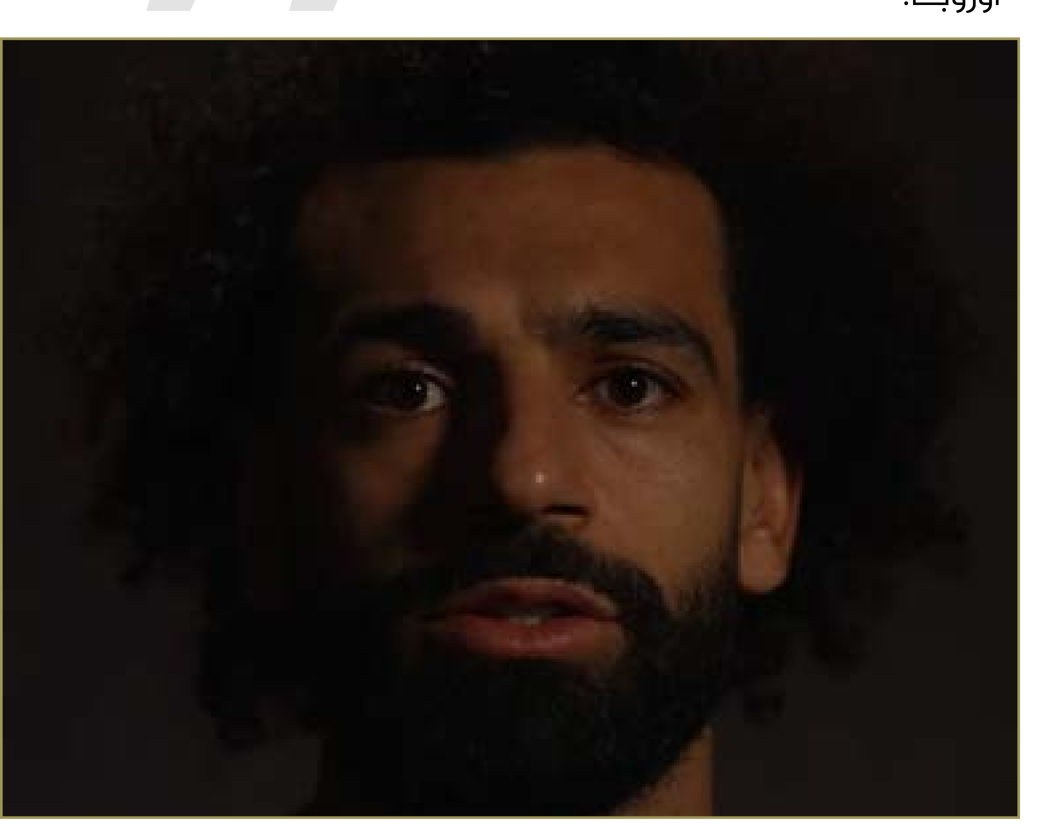
البعض يمسك ورقة وقلما، البعض يكتب وينشر ويحرر ويصاب بحمى التدوين، البعض يترجم مستخدمًا كل معرفته باللغات الأخرى، أو حتى مترجمًا عبر جوجل؛ البعض يسجل الفيديوهات، البعض يسجل الحقائق ويدقق المزاعم ويفضح التزييف، الكل يحارب لا من أجل اقتناعه بصناعة فارق حقيقي - وإن كان هذا يحدث بالفعل - بقدر ما يحارب عجزه وقهره، الجميع يريد أن يقول أي شيء ولو كان أذانًا في مالطة، أو طرقًا لجدار الخزان على طريقة «رجال في الشمس»

الجميع كان ليفعل أي شيء، حتى ولو صراخًا، عدا أن يصمت، أن يترك إخوته يبادون من دون نطق كلمة واحدة، ليس فقط خللاً في تكوينه مسلمًا، بل في تكوينه النفسي والقومي والهوياتي والوطني، وقبل ذلك الإنساني، وتحديدا في تعريفه لمفهوم الإنسان وما يترتب عليه من التزامات تجاه الإنسان الآخر، بعيدا حتى عن دين ذلك الإنسان ولغته وعرقه وموقعه الجغرافي وتاريخه المشترك. كل سبب من ذلك، بشكل منفصل، كفيل أن يصنع من فعلك موقفا، ومن شخصك رجلا تتوافر فيه علامات المروءة والشهامة.

صلاح: صمت طويل وحديث مائع

سكت محمد صلاح، إنسان يستطيع أن يوصل كلماته لملياري إنسان على وجه الأرض تقريبا، بتعقل لا مبالغة، ربما لا يستطيع الرئيس الأمريكي نفسه ذلك إن أراد إخبار العالم برسالة، لكن هذا، يرتدي الصغار قمصانه المقلدة رديئة الجودة في إفريقيا، وقمصانه الأصلية باهظة الثمن في أوروبا.

> تكلم صلاح بعدما ارتقى أربعة آلاف شهيد، ووقعت مجازر لمئات الأطفال، ما جعل الناس ينتقلون من لومه على الصمت إلى لومه على الكلام، وماذا قال؟ لم يجاوز عتبة الحياد بالسكوت إلا إلى عتبة الحياد بالحديث؛ فصار حنق الناس عليه أكبر



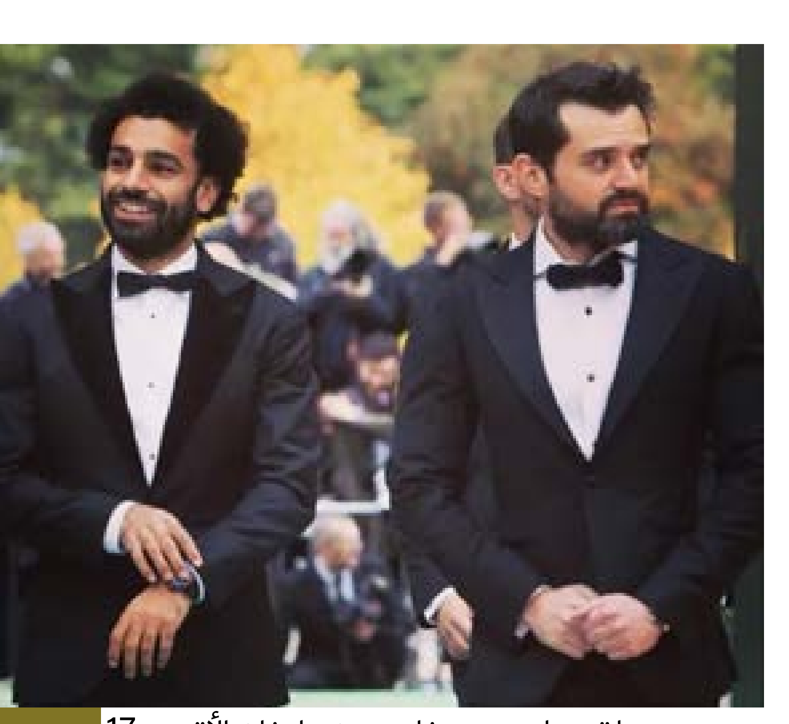
وبيـن هـذا وذاك، بيـن المقلـد والأصلـي والرفاهيّ الاسـتعراضيّ، الوطـن العربـي الـذي يفخـر بـه ويتبنـاه، يشـعر بطريقـة أو بأخـرى أنـه مشـروعه الخـاص، الشـخص الـذي يشـبه العامـة، يشـبههم شـكليا وفي لسـانه نحـو 100 مليـون على الأقـل، وسـط نصـف مليـار يقطنـون الأوطـان المتجـاورة، بيـن مليارين ينتشـرون في الجسـد الكبيـر، ضمن ثمانيـة مليـارات، جـل مـن يشـاهد التلفـاز فيهـم، أو يقـرأ الصحـف، أو يملـك هاتفـا وشـبكة إنترنـت ولـو ضعيفـة، أو يحـب كـرة القـدم ولـو ملعوبـة في كهـف أو حـوش أو ملعـب مجهـز فإنهـم جميعًـا يعرفـون صلاح، وسيسـمعون بطريقـة أو بأخـرى مـا سـيقوله، بـل أقـول إن الذيـن قـد يصلهـم كلامـه قـد يكونـون فعليـا أكثـر مـن الذيـن يعرفـون عـن فلسـطين

مـن أجـل ذلـك كلـه، كان على صلاح أن يتحـدث، أن يقـول شـيئًا، كلمـة واحـدة تطمئـن النـاس أنـه في صفهـم، بينمـا تعـرّف الآخريـن في أي صـف يجـب أن يقفـوا، أن يتكلـم فقـط، ليـس بحجـم الـكلام، ولا دبلوماسـيته، ولكـن بعفويتـه، أن يشـبههم كلامـه كمـا شـعروا بأنـه يشـبههم في كل التفاصيـل السـابقة التـي عاشـوها معـه، شـكله، فرحتـه، حزنـه، لغتـه، دينـه، احتفالاتـه

لكـن وبعدمـا ارتقـى نحـو أربعـة آلاف شـهيد، ووقعـت مجـازر لمئـات الأطفـال، تكلـم صلاح، الـذي جعـل النـاس ينتقلـون مـن لومـه على الصمـت إلـى لومـه على الـكلام، ومـاذا قـال؟ لـم يجـاوز عتبـة الحيـاد بالسـكوت إلا إلـى عتبـة الحيـاد بالحديـث؛ فصار حنـق النـاس عليـه أكبـر.

عشـرة أيـام ونحـن ننتظـر كلمـة تنصفنا ثـم تخرج لتطلـب مـن العالـم الغـذاء لمحاصريـن يقصفـون دون أن تقـول كلمـة واحـدة مـن أجلهـم؟ ليسـوا حيوانـات تـأكل وتشـرب، وإنمـا بشـر يريـدون مـن كل صاحـب ضميـر أن يتبنـى قضيتهـم ويخبـر بها الآخريـن، ثـم يأتـي محمـد ليسـاوي دماءهـم بدماء قاتليهـم، متـوسلًا على حسـابهم احتـرامَ النـاس لـه وكفايـة شـرهم

لـم يتحـدث محمـد مـن منطلـق نفسـه وسـجيته وفطرتـه، وإنمـا ظـل عشـرة أيـام يتحداهـا محـاولًا تنميـق الكلمـات وترتيـب الصفـوف ورص الحـروف حتـى يخـرج مـن كلمتـه بلا خسـائر؛ لكـن لأن الحسـبة خادعـة، ولأن نفسـه التـي يسـلمها لمديـر أعمالـه اسـتدرجته، فـإن محمـدًا لـم يكسـب إلا اسـتمراره في تحقيـق أرقامـه دون اسـتبعاد أو موقـف، واستحسـان الإعلام الغربـي المبطّـن الـذي كاد قلبـه يتوقـف حيـن رآه تكلـم قبـل أن يسـمعه، ليطمئـن بعدهـا أنها كلمات بلا مخالـب وجعجعـة بلا أنيـاب، وحديـث جبـان أكلت القطـط -التـي ينـادي بحقوقهـا بوجـه متأثـر أكثـر- لسـانه الـذي أصـاب أهـل غـزة بالاشـمئزاز والقـرف، والمتضامنيـن معهـم بالسـخط والغضب، والمحبيـن لـه بالكـره المفاجـئ، فخسـر محمـد صلاح، وربـح رامـي عبـاس





مؤثـــرو الإمـــارات والخوف على لقمة العيش!

ليسـت الحالـة تلـك خاصـة بـصلاح وحـده حتـى لا نُشَـخصِن الأمـور -مـع أنـه لا عيـب في ذلـك- ولكنهـا شـاملة لكثيريـن كأنهـم يأنفـون مـن الحديـث عـن فلسـطين، كأنـه تريـند يترفعـون عـن المشـاركة بـه، وهـم الذيـن لا واردة ولا شـاردة تحـدث إلا وكانـوا أول المشـاركين، ولكـن هـذه المـرة لأنهـا القضيـة المبتذلـة التـي يمكـن لآخريـن التفـوق بذكـر اسـمها دون حجـز «لَقطـة» خاصـة لهـم، فـإن المـكان غيـر مناسـب، والظـروف ليسـت ملائمـة لذكـر غـزة والتضامـن معهـا

هـذه الفئـة التـي يسـوء صمتهـا بقـدر صوتهـا إذا خـرج، طائفـة كبيـرة منهـم تتبناهـم الإمـارات، تعطيهـم الإقامـة الذهبيـة - وليـس كل مـا يلمـع ذهبـا - ليـس لسـواد عيونهـم، وإنمـا مـن أجـل يـوم كهـذا، تحتـاج فيـه الدولـة المطبّعـة إلـى جيـش مـن المؤثريـن كان باسـتطاعتهم مـلء العالـم بالروايـة الفلسـطينية وسـردية الحقيقـة، ليصمتـوا.

هـذه المـرة لـن يروجـوا للأبـراج المصمتـة ولا مـدن الحجـارة وناطحـات السـحاب الكئيبـة، وإنمـا أثمـن مـا يطلبونـه منهـم، أو يأمرونهـم بـه، في ظـرف كذلـك هـو ألا يكونـوا مـع «الآخـر» الفلسـطيني، هـا أنـت ذا تعيـش وتـأكل وتشـرب وتلتقـط صـورا وفيديوهـات للزيـف الـذي تعيـش فيـه، فمـا يعنيـك بفلسـطين ولماذا تحتـاج إلـى أن تقـول شـيئًا مـا دمـت لسـت هنـاك؟

وبالفعـل ابتلـع هـؤلاء ألسـنتهم، وبقـي مئـات الملاييـن الذيـن يتابعونهـم مجتمعيـن يشـاهدون صـور الحـفلات الليليـة والصباحـات الباهتـة والقصـص المزيفـة، كأنهـم في عالـم آخـر، أو كأن الذين يتضامنـون مـع فلسـطين ويـرون تلـك المشـاهد وتبكيهـم الأحـداث وتأسـرهم متابعتهـا هـم الذيـن في عالـم آخـر، فلمـاذا لا تُؤَثِّـرون راحتكـم النفسـية وتشـاهدوننا كالمهرجيـن في صمـت؟
ذلـك الخـوف القـوي المتمكـن مـن نفوسـهم، والخـوف على الكثيـر

> طائفة كبيرة من المؤثرين تتبناهم الإمارات، وتعطيهم الإقامة الذهبية، ليس لسواد عيونهم، وإنما من أجل يوم كهذا، تحتاج فيه الدولة المطبّعة إلى جيش من المؤثرين كان باستطاعتهم ملء العالم بالرواية الفلسطينية وسردية الحقيقة، ليصمتوا

من الأولويات المشوهة التي لا ينبغي أن تُقدم على فلسطين أو أي قضية دينية أو إنسانية نبيلة، كل ذلك بات يقودهم إلى اختيار عدم الانحياز، بما يعطينا نبذة صغيرة عما تمثله قضية فلسطين في وعيهم، وما تشغله من موقع في رؤوسهم الحافلة بالإعجابات والمشاهدات، والخوف الأكبر لديهم الذي يمثل كابوسًا قاسيًا هو أن يتأثر التفاعل لديهم أو تهدد صفحاتهم، حينها ولو كان كل أطفال غزة مهددين بالذبح حتى، فلا شيء أثمن من صفحة هي كينونتك، لأنك من دونها لن تستطيع كسب قرش واحد بما يرضي الله ولكن، حتى لا تكون الصورة قاتمة تمامًا، فإن من مكاسب هذه المعركة تعرية هؤلاء وكساد بضاعتهم، نظرة الكثيرين تغيرت بلا رجعة، تلك التفاهات التي كانت تستهويهم بدافع الفضول، استحالت صفرًا أمام ما يرون برافع الفضول أيضًا رغم توجع قلوبهم، حين يشاهدون صورا وفيديوهات لما يحدث في غزة، كما لم يعد تقييمهم للمؤثرين بحجم التفاعل لديهم، أو عدد البلدان التي يرتادونها، أو ماركات الملابس التي يرتدونها، وإنما حسب موقفهم من كل ما يجري، وعليهِ سيعيدون «فلترتهم» على ذلك القياس الجديد قبل كل شيء، ما يعني أن هالتهم التي يحبونها باتت محدودة وفي خطر

أهل غزة لا يضرهم من خذلهم

هل الوضع فقط بهذه المأساوية؟ بالتأكيد لا، على الجانب الآخر، بينما يؤثر صلاح ومجاذيبه الصمت الاختياري، أو الحياد المائع، فإن أمةً من الناس، وجيشًا من المخلصين، يقفون إلى جانب الحق دون مواراة، يؤمنون بأهمية سرديتهم، مستخدمين أدواتهم ولو لآخر مرة، كفارس يعرف أن تلك الضربة ستكسر سيفه، ولكن ربما بنسبة كبيرة تربحه المعركة، واضعين نصب عيونهم التحذير الذي يلاحقهم به الأديب صاحب الملهاة الفلسطينية إبراهيم نصر الله: «الحكايا التي لا نكتبها تصبح ملكًا لأعدائنا»

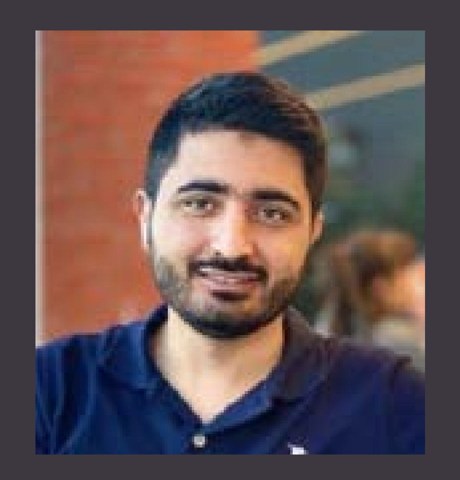
نهايةً هذه معركة أول نتائجها التمحيص، الغربلة، اكتشاف الذين يشبهونك وتحبهم، ولو كنت من قبل تضعهم في خانة «الجيل البايظ» واكتشاف الذين لطالما كانوا يمثلون عليك بأنهم مثلك، لكنهم مع أول اختبار حقيقي رسبوا، وأكدوا أنك لن ترى مثلهم، صمتًا وجُبنًا ودناءة

وقبل كل شيء فاحتياج الصامتين للكلام عن غزة حتى يشعروا بصدق أنهم ما زالوا على قيد الحياة ولم تمت دواخلهم بالكامل أكبر بكثير من احتياج غزة لهم حتى يعبروا عما كان يمنع ضجيج القصف وصوله من قبل



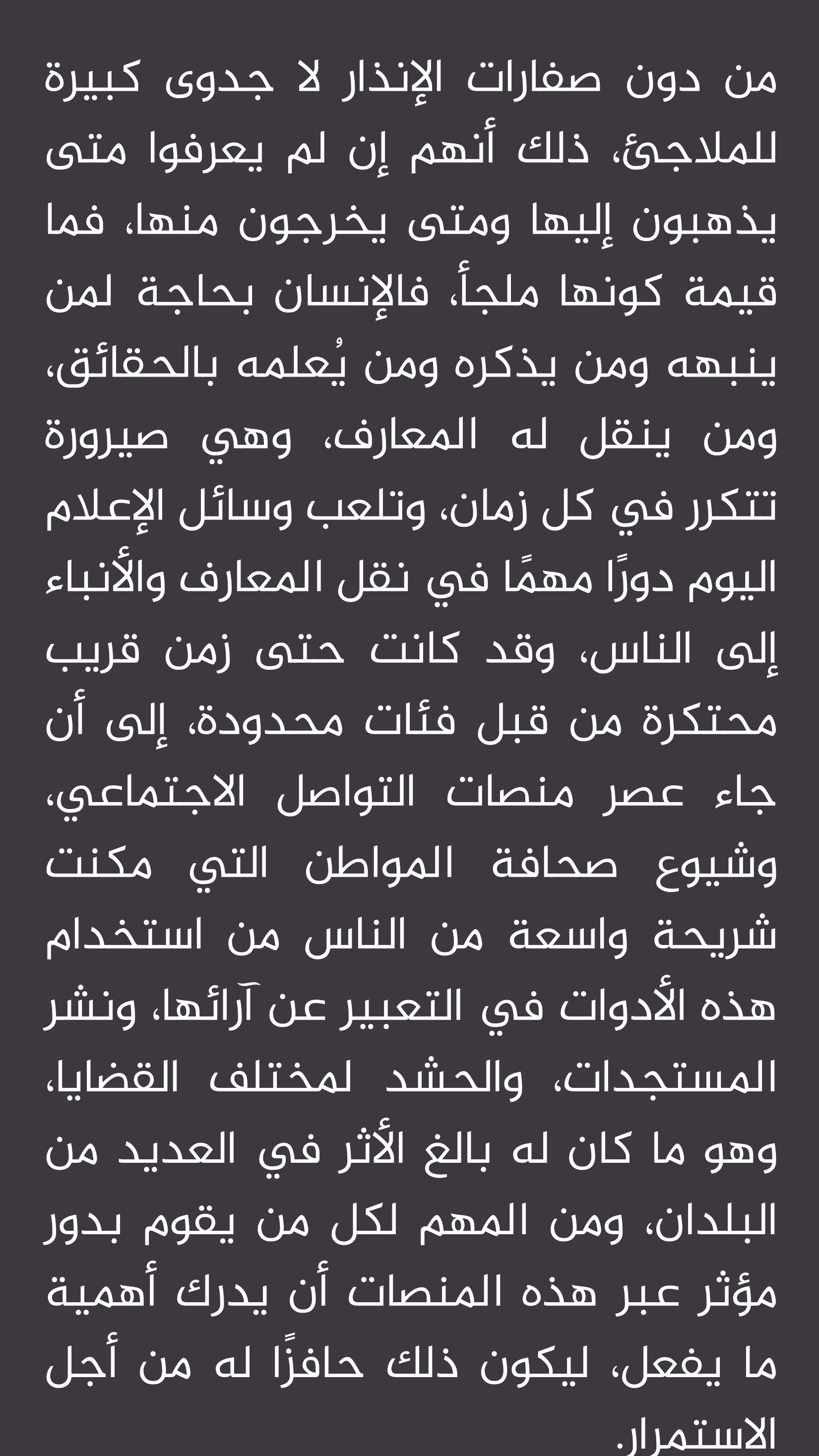

WOW.
فلسطين والاحتلال:
الصراع على وسائل
التواصل الاجتماعي

فلسطين والاحتلال: الصراع على وسائل التواصل الاجتماعي



رضوان الأخرس

كاتب وإعلامي، باحث بالحوكمة الرقمية



من دون صفارات الإنذار لا جدوى كبيرة للملاجئ، ذلك أنهم إن لم يعرفوا متى يذهبون إليها ومتى يخرجون منها، فما قيمة كونها ملجأ، فالإنسان بحاجة لمن ينبهه ومن يذكره ومن يُعلمه بالحقائق، ومن ينقل له المعارف، وهي صيرورة تتكرر في كل زمان، وتلعب وسائل الإعلام اليوم دورًا مهمًا في نقل المعارف والأنباء إلى الناس، وقد كانت حتى زمن قريب محتكرة من قبل فئات محدودة، إلى أن جاء عصر منصات التواصل الاجتماعي، وشيوع صحافة المواطن التي مكنت شريحة واسعة من الناس من استخدام هذه الأدوات في التعبير عن آرائها، ونشر المستجدات، والحشد لمختلف القضايا، وهو ما كان له بالغ الأثر في العديد من البلدان، ومن المهم لكل من يقوم بدور مؤثر عبر هذه المنصات أن يدرك أهمية ما يفعل، ليكون ذلك حافزًا له من أجل الاستمرار.



لا شك أن فلسطين كانت من أكثر البلدان التي تأثرت بشيوع صحافة المواطن، خصوصًا في ظل انحياز كثير من المؤسسات الإعلامية لصالح الاحتلال، الأمر الذي كان له بالغ الأثر السلبي خلال العقود الماضية على القضية الفلسطينية، وساهم في انتشار العديد من الأنباء والدعايات المزيفة والمضللة عن فلسطين وشعبها، فكان تراجع حضور القضية لدى الشعوب، وفي مختلف المحافل.

ما الجديد في معركة سيف القدس؟

كان وما زال الرأي العام عاملا مهما ومؤثرا في تحديد ورسم الكثير من التوجهات السياسية حول العالم، وكان له ذلك الأثر في المعركة الأخيرة، فقد كان الاحتلال عاجزًا على نحو كبير في ميدان الإعلام بكافة أشكاله، ولم ينتصر على صعيد الرواية بل على العكس مني بخسارة في الكثير من الأوساط التي كانت منحازة له وبشكل صارخ، وبتنا على سبيل المثال لا الحصر نلحظ ارتفاعًا لأصوات أمريكية مؤثرة تطالبه بوقف اعتداءاته، والتراجع عن إجراءاته، وكان لحالة الإسناد الإعلامي الكبيرة، وحجم الضخ الإعلامي الهائل لصالح الحق الفلسطيني على منصات التواصل الاجتماعي، أثر بالغ على تحريك الميادين والشوارع، ودفع الحكومات للتحرك خوفًا من تطور الأمور وخروجها عن السيطرة، ليس فقط في فلسطين بل في مناطق أخرى في العالم اشتعلت فيها المظاهرات أيضًا.

كانت براعة الصحفيين والإعلاميين والنشطاء الفلسطينيين، ومن ساندهم في نقل الأحداث، مصدر إلهام للكثيرين، ومحركة لأعداد كبيرة من الجماهير والمشاهير على منصات التواصل، الأمر الذي كان له الأثر الكبير في تحريك الرأي العام تجاه القضية، وعلى إثر ذلك كانت العديد من الفعاليات والتحركات على الأرض، والتي كان الكثير منها يتم الدعوة له عبر منصات التواصل.

ومن أبرز المستجدات في هذه المرة، دخول فئات وشرائح جديدة من المشاهير وأصحاب حسابات وصفحات معروفة في مجالات غير سياسية، كتلك المهتمة بالحديث عن الألعاب والفن والرياضة والترفيه، إلى ميدان التوعية بما يجري في فلسطين، وهو ما كان له تأثير واضح أيضا ساعد في جعل القضية محط أنظار المجتمعات العربية والإسلامية والعالمية على نطاق أوسع من فترات سابقة، لقد كانت حلقة متصلة ومتكاملة من الجهود من داخل فلسطين وخارجها، غير أن العنصر الرئيسي والذي أضفى حيوية وقوة كبيرة للأحداث،

هو وجود الفلسطيني مدافعا عن حقه ومطالبا بأرضه في صورة جمعت بين المأساة والبطولة، ناهيك عن أن الحق الفلسطيني في ذاته قوي، ولا يحتاج الكثير لإثبات مصداقيته لدى عموم الناس.

ورغم انحياز القائمين على منصات التواصل والإعلام الغربي، إلا أن الصوت الفلسطيني اخترق المدى ووصل إلى شرائح واسعة في المجتمعات الغربية، وكان واضحا مدى تأثرها بالرواية الفلسطينية، ومن ذلك أننا رأينا مظاهرات كبيرة وتفاعلاً أمريكيًا غير مسبوق مع القضية الفلسطينية، وكذلك الحال في بريطانيا ودول غربية أخرى، شهدت حراكًا كبيرًا لصالح القضية الفلسطينية، ورأينا أشكالاً متنوعة من الحراك بما في ذلك اعتراض عمال موانئ في دول غربية على نقل حمولات كانت متجهة إلى الاحتلال.

شهدنا أيضًا تغيرًا واضحًا في خطاب العديد من الشخصيات الغربية بما فيها شخصيات أمريكية من الحزب الحاكم، وعلى صعيد مؤسسات الإعلام الدولية، وكان واضحا أن انحيازها للاحتلال تأثر ولو نسبيًا، لكن لا يمكن القول بأنها انتقلت إلى صف الفلسطينيين، فبعضها على ما يبدو كان يساير المزاج العام لفئة كبيرة من الناس والمجتمعات، سواء تلك التي ظهرت عبر منصات التواصل تنادي بحقوق الشعب الفلسطيني، أو تلك التي نزلت إلى الشارع.

لم يكن تأثير منصات التواصل الاجتماعي فقط دوليًا أو عربيًا، بل كان له بالغ الأثر أيضًا على الرأي العام المحلي، وساهم في تشكيل حالة وعي فلسطينية رافضة على نحو واسع لانتهاكات الاحتلال وممارساته العدوانية، وجرائمه بحق الشعب الفلسطيني وأرضه ومقدساته، ومن المهم الإشارة هنا إلى أن الاحتلال يحاول إحالة ما يجري على الأرض من حراك وفعاليات فلسطينية إلى منصات التواصل، لا إلى جرائمه وعدوانه في محاولة لقلب الرواية وإظهاره بمظهر المدافع عن نفسه، والفلسطيني بمظهر المعتدي، وهو تزييف للحقيقة، كما هو ديدن الاحتلال منذ أن وصل أرضنا، واستخدم الأكاذيب ضد شعبنا ومازال، كل المشاهد والأنباء التي يجري نقلها لمنصات التواصل الاجتماعي من القدس وغزة والضفة والداخل المحتل، هي صورة الاحتلال الحقيقية، فإن كان المحتلون يرون أن صورتهم وحقيقتهم تثير الرأي العام ضدهم، فالمشكلة فيهم وليست فيمن ينقلها ليراها الناس.

من المهم دائما أن نركز على أصل الأحداث وتسلسلها، سواء كانت بفعل مباشر من الاحتلال، أو نتيجة تراكمات ظلمه، ومن المهم الإشارة إلى أم المشكلات؛ وهي استمرار الاحتلال، فما يقوم به الفلسطيني سواء على الأرض أو عبر الإعلام ليس سوى شكل من أشكال الدفاع عن النفس، الاحتلال مجرم سواء كان يقصف أو كان في فترة هدوء، مادام يسرق الأرض وينتهك الحقوق، والفلسطيني بريء وهو يدافع عن نفسه وأرضه وحقه.

تضامن شعبي يخرس المطبعين

لم يكن تأثير الثورة الرقمية المساندة لفلسطين على الاحتلال وحده، فيبدو أن دول التطبيع العربي قد شعرت بحرج شديد، إذ وجدت نفسها مكشوفة أمام شعوبها وفي نوع من العزلة والخوف من القادم، أما الأنظمة السابقة في التطبيع فقد تركت مساحة نسبية لشعوبها من أجل التعبير عن آرائهم وغضبهم، ورأينا دعوات عبر منصات التواصل الاجتماعي من أجل التوجه إلى الحدود في الأردن والعراق، ويتضح من مراقبة الأدوات الإعلامية لبعض دول التطبيع لجوئها لشيطنة

المقاومة الفلسطينية، ومهاجمة الحق الفلسطيني، والتشويش لصالح الاحتلال، في محاولة لضرب حالة التفاعل الكبيرة مع "القضية الفلسطينية".

وقد كان واضحا في هذه الجولة ارتفاع أصوات التأييد للمقاومة الفلسطينية من الجماهير خارج فلسطين، وليس فقط حالة تضامن اعتيادية ضد الظلم الذي يتعرض له الشعب الفلسطيني، فمن أهم ما تركه هذا الحراك هو شعور القدرة على هزيمة الاحتلال، وتصاعد روح العزة لدى الشعوب، وهو ما زاد من تخوفات العديد من الأنظمة وفي مقدمتها أنظمة التطبيع.

وترجمة لتلك الروح كانت هناك العديد من الأصوات بما فيها أصوات نواب منتخبين في بعض الدول، وكتل نيابية، تنادي بترسيخ العلاقات مع المقاومة الفلسطينية، وتقديم الدعم لها.

كان لبيانات المقاومة وخطابها وطريقة حضورها عبر منصات التواصل ووسائل الإعلام المختلفة بالتزامن مع أدائها الميداني، دور أساسي ومهم في تحفيز الجماهير، وإلهاب مشاعرها لصالح الحق الفلسطيني، الأمر الذي لمسناه في التفاعل الكبير من الجماهير داخل فلسطين وخارجها، واحتفائها بالقادة والناطقين باسم المقاومة، أمثال أبو خالد الضيف، وأبو عبيدة، والذي عبروا عنه بمختلف الأشكال والأدوات، سواء عبر منصات التواصل الاجتماعي، أو باللافتات والرسومات والأغاني والأشعار، وما إلى ذلك من أشكال أخرى، كان محببًا لهم أن يجدوا من يقف ندًا للاحتلال والظلم في ظل حالة الخنوع التي تعيشها الكثير من الأنظمة، وفي ظل حالة التطبيع الرسمي، وكان واضحًا أن الناس متعطشون لمشاعر العزة، ويحبون "المؤمن القوي" المدافع عن أرضه وحقه، فهو يلهمهم ويمثلهم، لذلك يقفون إلى جانبه ويدعمونه، ولا يكتفون بالتعاطف معه كما يفعلون مع المظلوم عموما.

من المهم القول: إن المقاومة أو النضال الفلسطيني لم يكن منحصرًا في غزة وحدها، إذ انتفض الفلسطينيون في القدس، حيث انطلقت شرارة الأحداث من باب العامود وحي الشيخ جراح، وانتقلت إلى غزة ومنها إلى اللد وأم الفحم والناصرة وكل الداخل المحتل، ومن ثم إلى جل مدن وقرى الضفة في صورة نضال بهي، اشترك فيه الشعب الفلسطيني في كل فلسطين من نهرها إلى بحرها.

"رغم انحياز القائمين على منصات التواصل والإعلام الغربي، إلا أن الصوت الفلسطيني اخترق المدى ووصل إلى شرائح واسعة في المجتمعات الغربية، وكان واضحا مدى تأثرها بالرواية الفلسطينية، ومن ذلك أننا رأينا مظاهرات كبيرة وتفاعلاً أمريكيًا غير مسبوق مع القضية الفلسطينية، وكذلك الحال في بريطانيا ودول غربية أخرى، شهدت حراكًا كبيرًا لصالح القضية الفلسطينية، ورأينا أشكالاً متنوعة من الحراك بما في ذلك اعتراض عمال موانئ في دول غربية على نقل حمولات كانت متجهة إلى الاحتلال"

جيل كامل تعرف على فلسطين في الأيام الأخيرة، وتجاوز التأثير حد المعرفة بالأحداث إلى العودة إلى أصل القضية، ومن الأسباب لذلك أن المعركة كانت مرتبطة بعدة أحداث تعتبر امتداد للنكبة الفلسطينية، وتتناول القضية من عدة جوانب، وتبرز على نطاق واسع أصناف الانتهاكات التي يعيشها الفلسطينيون، قضية حي الشيخ جراح، وأحياء سلوان، تلخص المأساة الفلسطينية المتمثلة بشعب جرى تهجيره قسرا عن أرضه، وما جرى في المسجد الأقصى من انتهاكات إسرائيلية أعاد الحيوية إلى البعد الديني الإسلامي للقضية، والعدوان على غزة وانتفاضة مقاوميها أعادا حضور صورة كفاح ونضال الشعب الفلسطيني، كما تبددت الكثير من الخرافات التي تقال عنه زورًا وبهتانًا، وأظهرت وحشية الاحتلال وبشاعة إجرامه.

ليست المرة الأولى التي نشهد فيها تفوقا للرواية الفلسطينية على منصات التواصل الاجتماعي، فقد سبق هذه المرة مرات سابقة، منها على سبيل المثال، ما حدث أثناء العدوان الإسرائيلي على غزة عام 2014، حيث تفوقت يومها الرواية الفلسطينية بشكل واضح على دعاية الاحتلال، كان التفاعل كبيرًا مع الحق الفلسطيني، وتضررت صورة الاحتلال وظهرت فظائعه للعالم على نحو واسع، غير أن الاحتلال زاد من حضوره عبر المنصات بشكل ملحوظ بعد تلك الحرب، وأفرد لها ميزانيات خاصة وفرقًا ولجانا متخصصة.

ومن الواضح أن الاحتلال تعاون مع جهات من دول مختلفة في ذلك، بالإضافة لاستخدامه انحياز منصات التواصل الاجتماعي له، وعلى ما يبدو أنه ساهم في صنع بعض الخوارزميات التي تحارب المحتوى الفلسطيني الرافض للاحتلال، من خلال تزويد منصات مثل فيسبوك بقاعدة بيانات فيها أسماء شخصيات فلسطينية ناضلت ضد الاحتلال، وفيها مصطلحات وصور وما شابه جرى من خلاله تقييد ومحاربة المحتوى الفلسطيني، بالإضافة لملاحقة أسماء وصفحات وحسابات بعينها، وتقييد وصولها، وبث الأكاذيب والدعايات المضللة، واستخدام أساليب مختلفة للتشويش على الوعي، وأيضًا استخدام شخصيات

> **من دون صفارات الإنذار لا جدوى كبيرة للملاجئ، ذلك أنهم إن لم يعرفوا متى يذهبون إليها ومتى يخرجون منها، فما قيمة كونها ملجأ، فالإنسان بحاجة لمن ينبهه ومن يذكره ومن يُعلمه بالحقائق، ومن ينقل له المعارف، وهي صيرورة تتكرر في كل زمان، وتلعب وسائل الإعلام اليوم دورًا مهمًا في نقل المعارف والأنباء إلى الناس**



وأدوات مختلفة من أجل التمهيد للتطبيع أو قبوله شعبيًا، بما في ذلك بعض المشاهير، إلا أنه كان يُصدم في كل مرة بالرفض الشعبي، وكانت الضربة الحاسمة لكل هذه الجهود، هي ما جرى خلال الجولة الأخيرة، حيث تبين للاحتلال ومن معه أن ما بنوه خلال سنوات من سرديات ودعاية لصالح الاحتلال والتطبيع انهار في أيام.

جهد فردي في مواجهة عمل منظم

لم يكن قصف الأبراج التي ضمت مكاتب الصحف والمؤسسات الإعلامية إلا دليلًا على الإفلاس الإسرائيلي أمام تفوق الرواية الفلسطينية، كما أن لجوء وزير حرب الاحتلال غانتس إلى الجلوس مع إدارات مواقع التواصل الاجتماعي خلال العدوان، دليل آخر على العجز، ومحاولة نتنياهو فرض حظر على منصات التواصل خلال المعركة، يعزز الدلائل على حجم الخيبة التي مني بها الاحتلال في هذا الميدان.

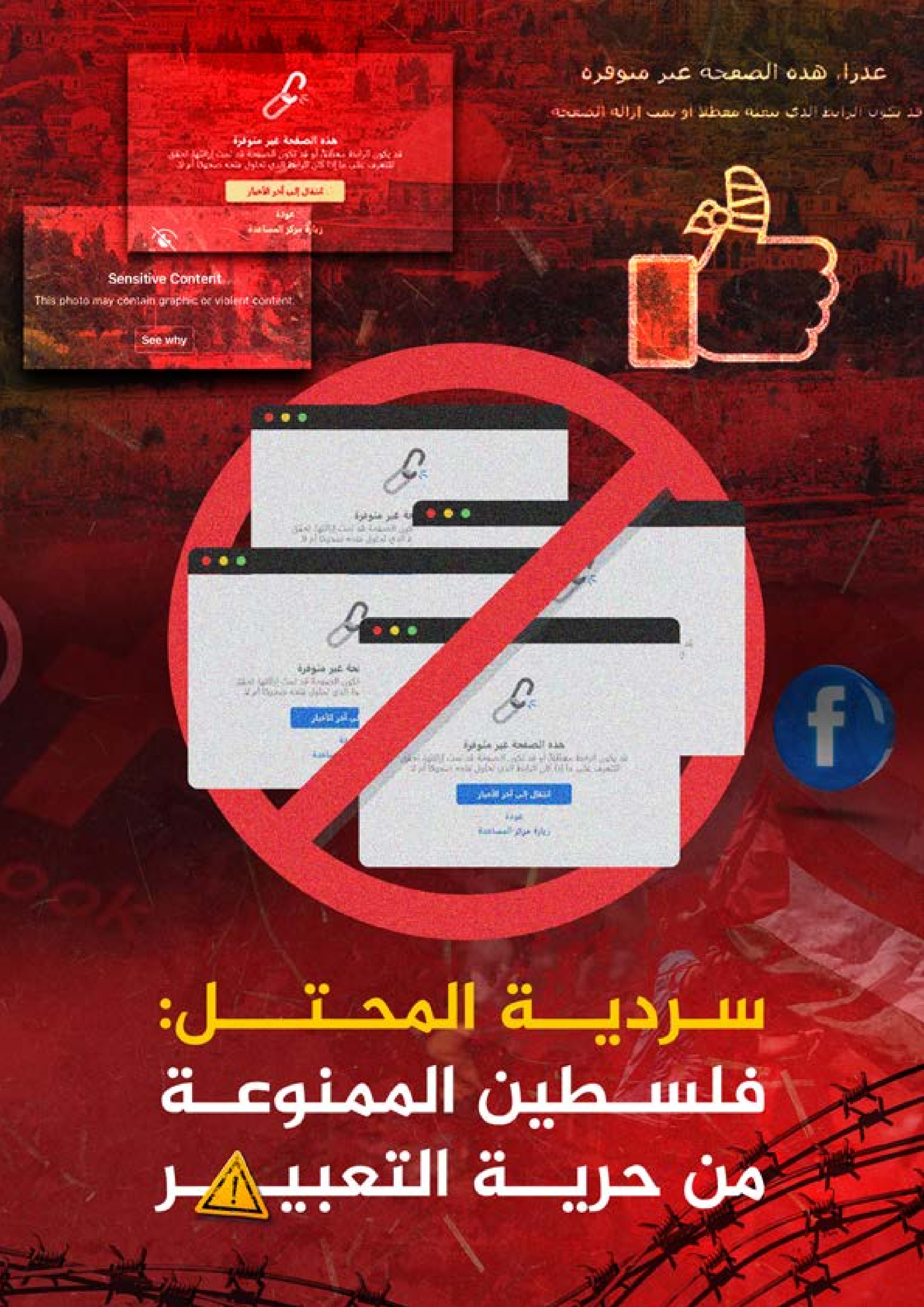
يدل هذا السعار الإسرائيلي من منصات التواصل، وهذه المحاربة الشديدة للأصوات الفلسطينية فيها، على حجم ومدى تأثيرها، ولعل نتنياهو كان أكثر وضوحًا عندما قال بأن الرأي العام العربي أكبر عقبة أمام التطبيع.

من المهم القول أن الجزء الأكبر والأكثر تأثيرا وحضورًا للفلسطينيين ومن معهم على منصات التواصل الاجتماعي هو جهد أفراد لا مؤسسات، ولعل لهذا أثره المهم والحيوي في فترات اشتعال الأحداث والمعارك، غير أنه قد لا يكون كافيًا أو مناسبًا في فترات الهدوء التي ينصرف فيها الناس إلى أعمالهم، الأمر الذي يؤثر سلبا على حضور القضية على المنصات، في حين أن جهود الاحتلال هي بدرجة أساسية جهود مؤسسات تعمل طوال العام دون انقطاع، حيث يعمل الاحتلال على استخلاص العبر بعد كل معركة، إضافة إلى وضع الحلول والخطوات اللازمة لمواجهة تأثيراته، حيث يحاول معالجة صورته في الرأي العام بوضع برامج متعددة، ورصد ميزانيات ضخمة، بما يحقق له عدة أهداف على صعيد الدعاية، سواء كانت دفاعية مثل تقديم نفسه بسردية مخادعة كمظلوم لديه أحقية متوهمة، أو كانت هجومية يريد من خلالها أن يعيد ما تسمى هيبة كيانه الهش، وقوة الردع التي تآكلت.

تلقى الاحتلال ضربات موجعة في ميدان الإعلام والفضاء الرقمي خلال المعركة الأخيرة، إلا أنه ما يزال موجودًا ويتمتع بقوة وقدرة على العمل، لهذا وغيره ينبغي أن يستمر الحراك الإعلامي، والتفكير في مشاريع دائمة تحافظ على الوعي والحضور القوي للقضية، وتبني على الجهود الفردية وتستثمر فيها وفيما أنجزته، لتبقى مستمرة طوال العام تعمل على تأصيل القضية في النفوس، وترسيخها، وحماية وعي الأجيال، وأيضا للعمل على إحباط مشاريع الاحتلال التي تهدف لصهينة العقول والأفكار.

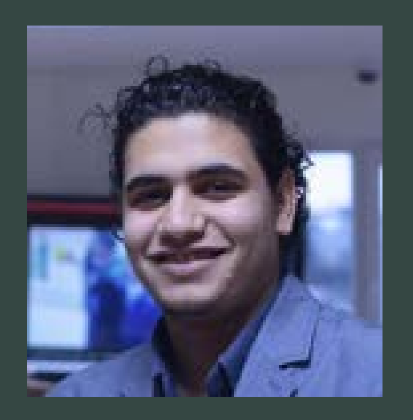
الحرب المنظمة التي يقوم بها الاحتلال ومن معه ضد المحتوى الفلسطيني والنشطاء الفلسطينيين، تحتاج إلى جهد منظم بأكثر من مسار من أجل التصدي لها بكفاءة عالية.





عذرا، هذه الصفحة غير متوفرة
هذه الصفحة غير متوفرة
انتقال إلى آخر الأخبار
Sensitive Content
This photo may contain graphic or violent content.
See why
سردية المحتل:
فلسطين الممنوعة
من حرية التعبير

سردية المحتل: فلسطين الممنوعة من حرية التعبير



محمود العناني

صحفي ومنتج وثائقي

يتبين كل طرف في العالم موضع قدمه كل صباح، أين يقف؟ في أي مساحة من الجميع يقترب؟ مع أي الملفات المطروحة في الساحة الدولية يشتبك؟ وأي الأدوات المتاحة بين يديه يستخدم وبأي حليف يستعين

أسئلة كثيرة، تترجم لاحقًا إلى خططٍ عملية عنوانها جميعًا السردية، حيث إن الأخيرة هذه هي المؤطر دومًا لأي حراك، فطبقًا لسرديتك تتحسس خطواتك في هذا العالم، عاملاً بها ومحافظًا عليها، وتتجلى هذه السردية في أغلب الأحيان في "الإخبار" الذي يتم عن طريق وسائل الإعلام أو الناس في الشوارع أو اللافتات المعلقة والمناهج الدراسية وكتب التاريخ، حتى يتحول الأمر إلى ميزانٍ تزن عليه كل شيء، قراراتك السياسية، وتوجهاتك الاقتصادية والاجتماعية، لتسأل نفسك دومًا: هل يتوافق هذا التصرف مع سرديتي؟

وفي هذا العالم المليء بالاشتباكات، يحاول الجميع تشكيل سرديته لتكون بوصلته في الحكم على الأشياء، ودافعًا لتبرير تصرفاته، وتُخصص الملايين يوميًا لبناء وترويج هذه السرديات من كبرى الأمم قوةً وعتادًا إلى أضعفها سلاحًا ودعمًا، حيث إنها معركة قد لا تكون متكافئة في كثيرٍ من الأحيان لكنها تبقى معركة ممكنة الربح دومًا في حال استُخدمت الأدوات الصحيحة لذلك، وعلى رأس كل هذه الأدوات؛ الإعلام بكل أشكاله وصنوفه، بالإضافة إلى النوادي الثقافية وتجمعات الأكاديميين وأيضًا أصحاب الرأي والتأثير.

تعيش منطقتنا في هذا الصراع منذ عقود، لكن على مستوياتٍ مختلفة، تتطور بتغير الأدوات، ودخول عناصر جديدة في اللعبة السياسية والإعلامية، فمحاولات الاحتلال الإسرائيلي خلق سردية تدعم وتبرر سياساته ضد الفلسطينيين من جهة وقمعهم من التعبير عن أنفسهم في ظل ما يجري من جهة أخرى لتظل الصورة دائمًا التي يسمع بها العالم عن إسرائيل؛ هي جمال شواطئ تل أبيب وحيفا.

هذا الترويج والقمع المتوازيان، تستخدم فيهما إسرائيل الإعلام ليس بعناصره فقط، بل بتقييداته وخطوطه التحريرية.

كيف تخلق مظلومية ثم تنتصر عليها؟

بهذه الطريقة بنت إسرائيل مظلوميتها في فلسطين، على خلفية مظلومية اليهود الكبرى مستخدمة إرث المحرقة في الترويج لواقع لا تعيشه، فتجد في خضم ما كانت تشهده الولايات المتحدة الأمريكية، أواسط يناير الماضي، أثناء محاولة ديمقراطيي الكونجرس محاكمة ترامب للمرة الثانية، قُبيل تولي جو بايدن الرئاسة، تجد رئيسة مجلس النواب، نانسي بيلوسي تقف تحت سقف الكونغرس، وأثناء مطالبتها بعزل ترامب تقتبس أبياتا لشاعر إسرائيلي وصفته بالعظيم. في دلالةٍ واضحة على التأثير الذي يمكن أن تحدثه الدعاية على عقول أهم الساسة الأمريكان.

الأمر لا يتوقف هنا عند مجرد التأثير في عقول النخبة، بل أصبحت تهمة معاداة السامية الفضفاضة سلاحًا مسلطًا على رقبة أي منتقد لإسرائيل في دول العالم الحر، بل يمكن ببساطة أن تنسحب هذه التهمة على كل من انتقد إسرائيل في وقت سابق، فتصبح أداة حكم تستخدم بأثرٍ رجعي على أحداث فات أوانها، ففي يوليو عام 2019 تعرض الصحفي المصري، محمد

في هذا العالم المليء بالاشتباكات، يحاول الجميع تكوين سرديته لتكون بوصلته في الحكم على الأشياء، ودافعًا لتبرير تصرفاته، وتُخصص الملايين لبناء وترويج هذه السرديات.

الشامي للفصل من شبكة CNN بعد أن استطاع مغردون يمينيون الوصول إلى تغريدات كتبها قبل ثمانية أعوام، ينتقد فيها إسرائيل، قبل ذلك بأشهر في نوفمبر 2018، فصلت القناة نفسها المعلق السياسي مارك ليمونت هيل، بعد خطاب ألقاه في الأمم المتحدة، تحدث فيه عن الصعوبات التي يواجهها الفلسطينيون داعيا إلى التحرك لحمايتهم، لكن "فلسطين حرة" التي قالها في نهاية خطابه كانت كفيلة بإنهاء خدماته مع الشبكة الأمريكية.

وفي فبراير الماضي، قامت صحيفة الجارديان بالاستغناء عن خدمات الصحفي وكاتب العمود الأمريكي، ناثان روبنسون، بسبب تغريدة ساخرة له، قال فيها: "هل تعرفون أن الكونغرس الأمريكي غير مخول فعليا بالمصادقة على أي إنفاق جديد ما لم يتم تخصيص جزء منه لبيع الأسلحة إلى إسرائيل؟ هذا هو القانون"، وبالتأكيد مجرد السخرية من تصرف سياسي، تقوم به إدارة تجاه أخرى -إن كان متعلقًا بإسرائيل- فإنه معاداة للسامية، وهي التهمة التي جناها روبنسون من انتقاده هذا، ورغم إيضاحه أنها مجرد "نكتة"، إلا أن حسه الكوميدي لم يشفع له ولم يجنبه العقاب.

يسعى الطوق الذي تفرضه إسرائيل على وسائل الإعلام الكبرى إلى حماية سرديتها التي تطلقها في كل الوسائط، حيث أن كل منتقد لهذه السردية هو معادٍ بالضرورة للسامية، وبناءً عليه فلا صوت ناقد في أي نافذة إعلامية كبرى أو مؤسسة ذائعة الصيت. وحينما لا تجد مكانًا في الإعلام التقليدي، عليك أن تهرول للبديل، لكن؛ هل ستتركك إسرائيل تحظى بحرية التعبير تضامنًا مع فلسطين؟

قصف المحتوى الفلسطيني

رغم اتسام مواقع التواصل الاجتماعي لبعض الوقت بكونها فضاءً حرًا يستطيع فيها أصحاب الآراء المختلفة التعبير عن انحيازاتهم دون التعرض لمقص الرقيب، إلا أنه ومع تطور آليات عمل هذه المواقع وتعاونها الوثيق مع إسرائيل، أصبحت بمرور الزمن أقل رحابةً بالآراء المخالفة للسردية الإسرائيلية

يسعى الطوق الذي تفرضه إسرائيل على وسائل الإعلام الكبرى إلى حماية سرديتها حيث أن كل منتقد لها هو معادٍ للسامية، وبناءً عليه فلا صوت ناقد في أي نافذة أو مؤسسة ذائعة الصيت





للأحداث، بل ومتخذةً موقفًا يصل إلى العداء في أغلب الأحيان.

ويتصدر فيسبوك قائمة المعادين للتدوين المناهض لإسرائيل، تليه منصات أخرى مثل تويتر ويوتيوب وحتى لينكد إن، المنصة المعنية بالعلاقات المهنية والاحترافية فقط، فمنذ 2016 ويلاحق فيسبوك الصفحات والنشطاء الفلسطينيين، بحجة مخالفتهم معايير مجتمعه، التي من بينها بالتأكيد عدم التحريض على العنف بكافة أشكاله، وأخذت مساحة مراقبة الذكاء الاصطناعي للمستخدمين في ازدياد، حتى أصبح الأمر لا يحتاج أن يقوم أحدهم بالإبلاغ عن منشور لك، بل يُحيلك سلاح الخوارزميات إلى مقصلة العقاب فور نشر صورة أو كلمة أو فيديو تخالف هذه المعايير.

يوضح ذلك، إعلان وزارة القضاء الإسرائيلية استجابة إدارة موقع فيسبوك لما يقرب من 85٪ من طلبات إسرائيل لإزالة وحظر وتقديم بيانات خاصة بالمحتوى الفلسطيني على فيسبوك عام 2017. لكن اليوم لم تعد إسرائيل بحاجة لتقديم طلبات لحظر شخص أو محتوى بعينه، بل أصبحت الخوارزميات تقوم بذلك الدور بالنيابة عن القضاء الإسرائيلي.

ومع تصاعد الحملات التضامنية مع حي الشيخ جراح في القدس، على مواقع التواصل الاجتماعي عاد فيسبوك ليمارس دور الرقيب في قمع هذه الحملات، اكتملت الصورة ببدء إسرائيل حملتها العسكرية على قطاع غزة والتي خلفت عشرات الشهداء من الأطفال والنساء، ومع اشتداد الحملة استمرت خوارزميات مارك زوكربيرغ في التصدي لمنشورات التضامن، بل وسعت لتقليل الوصول للمنشورات التي تناقش القضية، من خلال الكلمات الدالة، كفلسطين والقدس والمقاومة التي أصبحت الآن ترسل فورًا تنبيهات إلى تلك الخوارزميات.

ويبدو أن الذكاء الاصطناعي لم يقم بالدور الكافي الذي تتمناه إسرائيل، إذ عقد بيني غانتس وزير القضاء الإسرائيلي -بالتزامن مع الحملة العسكرية على غزة- اجتماعات مع المديرين التنفيذيين في "فيسبوك" و "تيك توك" أوصاهم فيها بضرورة اتخاذ إجراءات سريعة لمحاربة المحتوى الفلسطيني. وكأن ما تفعله إدارة هذه المنصات ليس بكاف للتعمية على الجرائم التي ترتكبها قوات الاحتلال.

لكن هذه المرة كانت ردة الفعل مختلفة، إذ بدأ المستخدمون ليس فقط في التحايل على الذكاء الآلي، بل شنوا حملة عقاب لفيسبوك على متاجر التطبيقات وأطلقوا حملات لمقاطعته، بالإضافة لتدشين منصات تعطي نصوصا تتجاوز معرفة الخوارزميات وبذلك لا يعرضك التدوين عن فلسطين للحظر أو تعطيل الحساب، وهي خطوات نراها للمرة الأولى في المعركة بين الاحتلال والمدافعين عن حقوق الفلسطينيين.

وفي كل المحاولات الحثيثة هذه لإيصال الواقع المأساوي الذي يعيشه الفلسطينيون، تجد على الجهة الأخرى يسمح فيسبوك لعشرات الصفحات المروجة للمحتوى الدعائي الإسرائيلي بالقيام بأدوارها دون قيود، بل ويسمح لها بالترويج لمعلومات مضللة، أثبتت جهات مستقلة عدم صحتها.

وحتى يستمر طرفا معادلة السردية في المُضي قُدمًا (الحظر والتسويق) فإن إسرائيل ومع تطور أدوات تقديم المحتوى عبر الإنترنت وعَت أهمية "المؤثرين" فلجأت لتبنى بعض منهم، بهدف المساعدة في ترويج رواية الاحتلال والدفاع عنها، وأبرز مثال على ذلك هو المدون ذو الأصول الفلسطينية، ياسين نصير



حيث ترعى مؤسسات وأشخاص داعمة لإسرائيل مشروع "أكاديمية ناس ديلي" المعنية بتخريج ثمانون صانع محتوى عربي مدربون على إنتاج المحتوى، لكن بهدف تجميل صورة الاحتلال، ويتولّى التدريب في الأكاديمية موظف سابق في جيش الاحتلال يدعى يوناتان بيليك.

شاشاتٌ صغيرة، وأخرى كبيرة

ربما أصبح مألوفًا بالنسبة لك سماع كلمة "إسرائيل" في أفلام ومسلسلات هوليود بشكل متكرر، وتجد الاسم مقحمًا في مشهد لا علاقة للشرق الأوسط برمته بسياقه، لكن تجد الممثل يشير إلا أن صديقه أحب فتاة إسرائيلية وسافر معها إلى تل أبيب أو يهودي متدين من بروكلين في نيويورك ذهب لدراسة التوراة في القدس، أو عميل استخباراتي يشارك مع رؤسائه معلومات وردته من زميل يعمل في الموساد.

كل هذه المشاهد ليست مصادفة، إنها بغرض التطبيع مع فكرة أن إسرائيل دولة مسالمة، لكنها قوية، تتعاون مع الـCIA وتتبادل معها المعلومات، ويدرس طلابها في الجامعات الأمريكية،، بل إن ذكر إسرائيل في سياق أي صراع في الشرق الأوسط، يكون من خلال لعبها دور الوسيط القوي في حل مشكلات هذا الإقليم المنكوب.

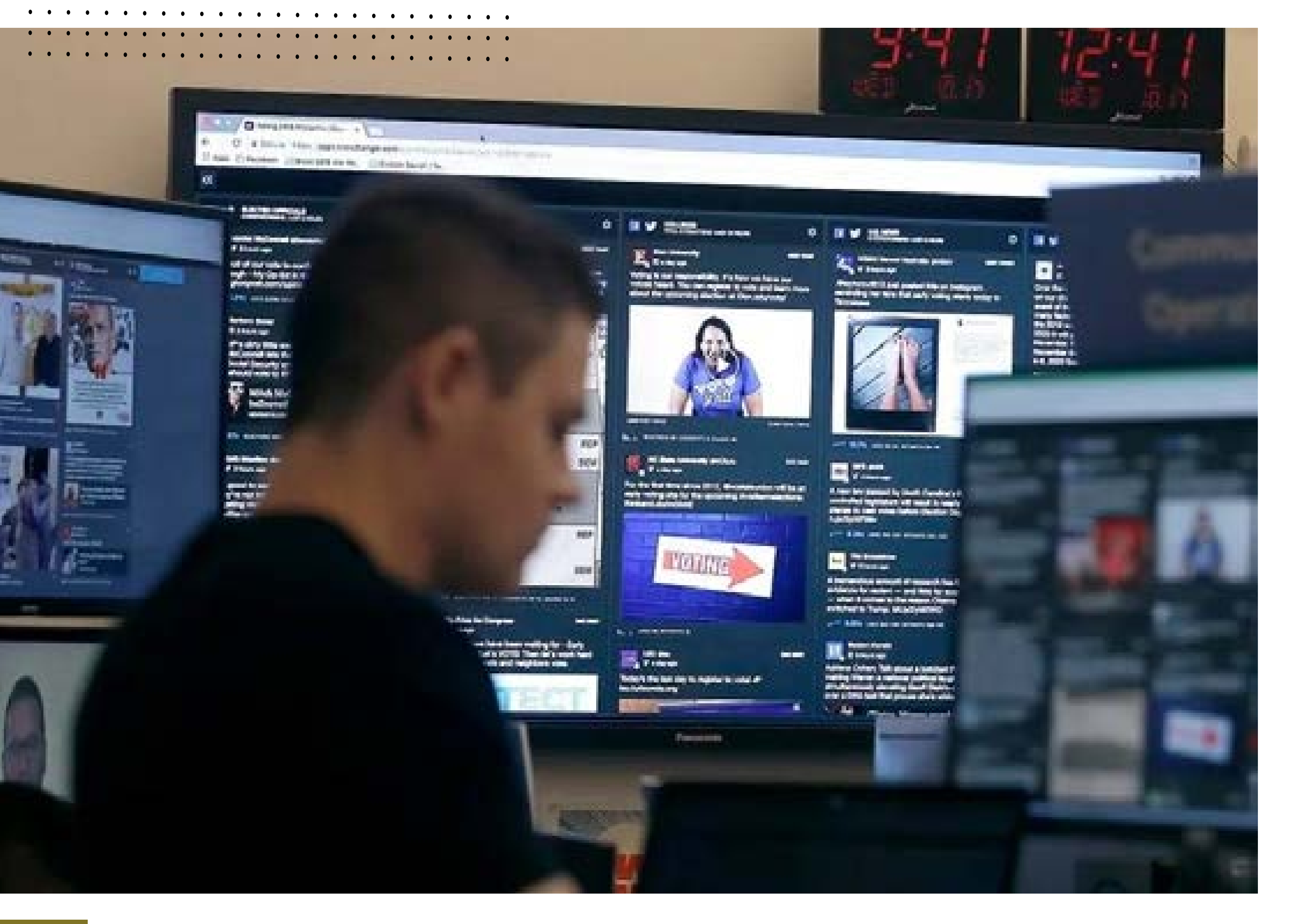
وتلك قصة وعت لها إسرائيل مبكرًا، ففي عام 2016 أُعلِن عن تأسيس نتفليكس مكتب رئيسي لها في تل أبيب، ضمن خطتها للتوسع خارج الولايات المتحدة، قبل ذلك وبعده، شاهدنا إنتاجات نتفليكس الأصلية عن إسرائيل، لا تعبر بأي حال سوى عن الرواية الإسرائيلية، وتجد المنصة تنشر سلاسل وثائقيات للغرض ذاته، وتنتج مسلسلات بعدة أجزاء تحكي الدور الذي تلعبه عصابات المستعربين

> "كل هذه المشاهد ليست مصادفة، إنها بغرض التطبيع مع فكرة أن إسرائيل دولة مسالمة، لكنها قوية، تتعاون مع الـCIA، ويدرس طلابها في الجامعات الأمريكية."

في حماية أمن إسرائيل، رغم أن هذه المجموعات ترتكب جرائم بالجملة بحق الفلسطينيين.

وفي سياق الصورة الذهنية تلك الذي تلعبها إسرائيل، لا يمكن تجاهل برنامج "هسبرا"، برنامج الدبلوماسية العامة، وهي أنشطة دعاية تلقى قبولاً لدى المجتمعات العامة في الغرب، وتهدف لدعم من يقفون إلى جانب دولة الاحتلال والحد مما تصفه بـ"العداء" لها، ونشر منطق التطبيع مع الاحتلال في الغرب، ويدير البرنامج وغيره، وزارات الخارجية والإعلام والسياحة الإسرائيلية بالإضافة إلى رئاسة الوزراء، ولقياس خطر هذا البرنامج، فإن أحد أنشطته هو برنامج الزمالات الذي يتعاون مع أكثر من 250 جامعة في أنحاء العالم.

ورغم كل هذه المحاولات التي لا يجب أن نغفل عنها أبدًا، لا يمكن إهمال الأدوار التي يقوم بها المبدعون المهتمون بدعم القضية الفلسطينية، إذ لا تنتهي محاولاتهم لكسر جدار الصمت الذي تفرضه الآلة الإعلامية الضخمة التابعة لإسرائيل، لكن وفي خلفية كل ذلك تبقى المقاطعة والتعريف بالجرائم المرتكبة بحق الفلسطينيين هما السبيل الأبرز في معركة الفكرة والتأثير هذه، وقد رأينا تأثير نشر الانتهاكات على تفاعل مشاهير كُثر حول العالم للمرة الأولى، بفعل وصول هذه الوسوم إليهم، وهو ما يدعونا لعدم استصغار أي فعلٍ يدعم نضال الشعب الفلسطيني.




فلسطين
FALASTIN
مظاهرة كبرى في يافا يشترك فيها آلاف السكان
3 أجيال مختلفة:
قضية فلسطين
في أبيات الشعر
المصري

3 أجيال مختلفة: قضية فلسطين في أبيات الشعر المصري



أحمد عبدالحليم

باحث مصري في قضايا الاجتماع

في كثير من الأحيان، يَتداول روّاد وصفحات مواقع التواصل الاجتماعي لا سيّما المُهتمّون بالأبواب الثقافية خاصّة الشعر صورة لثلاثة وجوه بارزّة في الثقافة المصرية/الفلسطينية. الصورة تجمع الشاعر المصري عبد الرحمن الأبنودي برفقة الفلسطينيّ محمود درويش وتتوسطها الكاتبة والصحافية المصرية صافيناز كاظم

يحكي الأبنودي عن قصة الصورة، حيث قَدِم درويش إلى مصر، واتصل به ليخبّره أنّه يريد مقابلته لأوّل مرّة، فذهب إليه حيث يمكث في فندق "شبرد"، والتقيا ببعضهما لأول مرّة في شوارع القاهرة لتنشأ صداقة تمتد لسنوات طويلة بين الشاعريّن

صداقةُ تكوّنت بفضل الشعر وأبياته، لا سيّما الشعر المصري الذي بدوّره قدّم الكثير للقضية الفلسطينية على المستوى الثقافي والشعبي والسياسي. تلك الصورة تأخذنا إلى ما قبل التقاطها ببضعة عقود، إلى بدايات الشعر المصري الذي ساندت أبياته القضية الفلسطينية، متسائلين ما وظيفة الشعر؟، وكيف وفيما قدّم وأثر الشعر المصري للقضية الفلسطينية ولِجمهورها الثقافي والشعبي والسياسي، ذاكرين أهم الشعراء والأحداث التاريخية التي أرّخوا لها، أيضا مقارنين للسياقات الشعرية بين كل حقبةٍ وأُخرى.

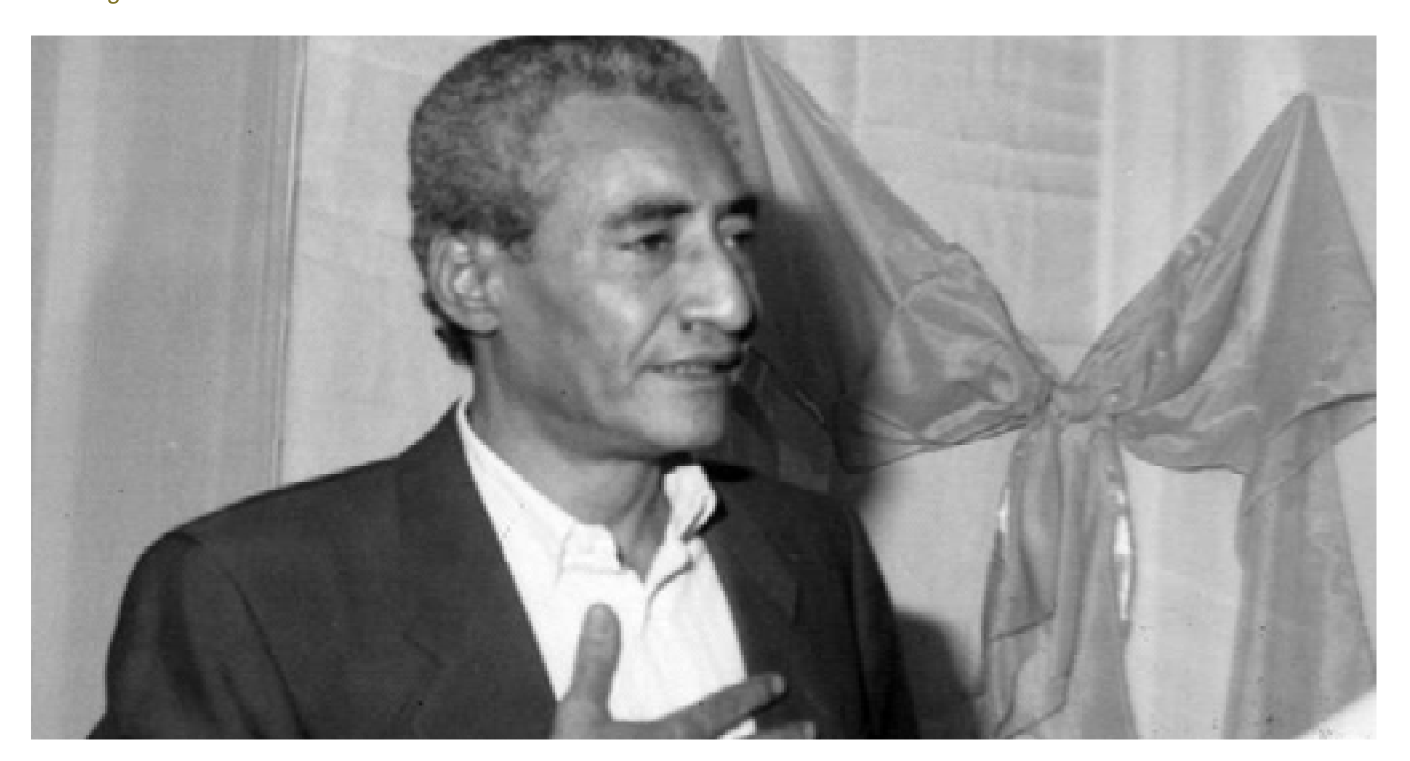
هل يحقق الشعر وظيفته؟

للشعر وظيفة، فما هي؟ يُجيب محمود درويش عن السؤال قائلا: "إنقاذ القلب الجماعي من التلف" أي أنّ الشعرَ يتجمع في وجدان جمعي يلهمه معنًى ما يساعده على البقاء، بينما يُراسله صديقه الشاعر الفلسطينيّ سميح القاسم كاتبا له: "يا صديقي العزيز إننا نرسم بحبر الروح وبدم القصيدة سهما واضحا -أرجو أن يكون واضحا- يؤشر إلى الاتجاه السليم نحو خَرّوبتنا وزيتونتنا وزهرة برقوقنا اللاذعة"، فكانت نظرة القاسم حيال الشعر وكأنه البوّصلة نحو العودة مرّةً أُخرى.

لكنّ ليس شرطا أن يصل الشعر بجمهوره إلى ما يتمنّى. فَبرأي الكثيرين وفي مقدمتهم درويش أن الشعر لا يوقّف الزلزال ولا يُغيّر ماضيا، بل إنّه سلوك حياة كاملة كما يراه الشاعر السوري محمد الماغوط فيقول:"أحاول أن أكون شاعرا في القصيدة وخارجها، لأن الشعر موقفُ من الحياة، وإحساسُ ينساب في سلوكنا" يتماشى الماغوط مع نمط حياته المُعارض والذي جلب له السجن مِن قِبل النظام السوريّ، كما هو حال

> **لم يكونوا سياسيّين أو مناضلين ثوريين كما لم يشاركوا في أعمال احتجاجية، مقارنةً بالجيل اللاحق بهم، والذي بدوّره كان أشدّ غضبا ونضالا ضد الأنظمة العربية التي عاصرها.**





المصريّ عبد الرحمن الأبنودي الذي قال عنّ نفسه "أنا صوتي مني وأنا ابن ناس فقرا، شاءت ظروفي إني أكتب وأقرأ، فبشوف وبغنّي، والفقرا بعتيني" وبالرغم من إرسال الفقراء له ليكون صوتهم إلا أن الفقر حيّ، حيث مات هُو والناس.

فلسطين في الشعر المصري

مثّل الشعر المصري العاميّ منه والفصحى للقضية الفلسطينية إرثا كبيرا، ساند القضية وأشعلها في وجدان وعقول الشعوب العربية على مرّ العقود وإلى الآن، فَقبل عشرينيات القرن الماضي، وبداية المأساة الاستيطانية بفلسطين، كان قد كتب شعراء مصريون كُثر أمثال أحمد زكي أبو شادي، أحمد محرم، محمود رمزي نظيم، على محمود طه، محمود حسن إسماعيل، والشاعرة جليلة رضا.

ظلّت قصائد هؤلاء الشعراء محلّ الدراسات الأكاديمية والتأريخ، ولم تخرج إلى الشارع أو الواقع الاحتجاجيّ لأجيالنا العربية الحالية. اعتمّد هؤلاء الشعراء على اللغة العربية الفصحى، كما اعتمدت القصيدة على الأبيات الشعرية المنتظمة العمودية في شكّلها الغنائي، حيث البيت الأول الصدر والثاني يسمى بالعجّز. كما في قصيدة "ذكرى وعد بلفور" للشاعر أحمد محرّم.

أما حديثا، وتحديدا بعد نكسة يونيو عام 1967، فقد أُفرِزَ شعرُ مصريُ جديدُ، شعرُ مليءُ بالسخط والغضب والمقاومة والرفض، على لسان شعراء ما زالت أسماؤهم تتردد في أي تجمعٍ رافضٍ للاستبداد والاحتلال. من بينهم أمل دنقل وعبد الرحمن الأبنودي، وأحمد فؤاد نجم برفقةِ صوّته المِغناء الشيخ إمام، اعتمد هؤلاء الجُدد على الفصحى والعامّية من حيث اللغة، واتخذ الشعر نمطا غنائيّا وملحميا وقصصيا، كما اتخذت القصيدة شكلا عموديا في حين، وفي حين آخر شكلا مرسلاً كما في قصيدتيّن "وعد الحر" لأحمد فؤاد نجم و"لا تصالح" لأمل دنقل.

إلى حدٍ كبير، التزم الجيل الأقدم سالف الذكر من الشعراء المصريين كوّنهم شعراء مُميّزين في طرح القضية الفلسطينية والتعبير عنّها في مآساتِها ونكباتها المختلفة، لم يكونوا سياسيّين أو مناضلين ثوريين كما لم يشاركوا في أعمال احتجاجية، مقارنةً بالجيل اللاحق بهم، والذي بدوّره كان أشدّ غضبا ونضالا ضد الأنظمة العربية التي عاصرها، حيث تعرّض كلٍ من الأبنودي وفؤاد

نجم وأمل دنقل إلى السجن والمنع والمصادرة في أنظمة حكم جمهوريةٍ مختلفة، على عكس النظام الملكيّ الأقل قمعا والذي لم يصطدم معه شعراء النصف الأول من القرن العشرين، إلّا أن الجيلين كانا يعبران عن قلقهما المستمر حيال قضية تحرير فلسطين ومساندتها سواء عند إبرام وعد بلفور قديما أو حتى عند اتفاقية كامب ديفيد حديثا.

في وقتنا الحالي، تواجد شعراء مصريون كتبوا للقضية الفلسطينية مثل هشام الجخ الذي قدم قصيدة "فلسطين" وأحمد بخيت الذي قدّم قصيدة "رام الله"، لكنّ قصائدهما جاءت ضمن موجة التضامن الشعبية مع فلسطين، سواء قبل ثورة يناير أو في عام الحريات الذي تلاها.

لم يقدّم الاثنان أي عملٍ ثوريّ حقيقيّ بعد ذلك، بل تماها مع الصمت في ظل النظام القائم في مصر، وتبرأ الجخ من مشاركته في ثورة 25 يناير، فضلا عن اتهامه بالتطبيع بعد زيارته الأراضي الفلسطينية المحتلة لإحياء أمسية شعرية، فلم يكونا مثل دنقل والأبنودي في إلقائهما الشعر لفلسطين في ظل أجواء قمع الستينيات وما بعدها، لم تكن قصائد الإثنين أيضا كَقصائد دنقل والأبنودي ونجم، لا في قوّتها في الرفض، ولا في قابليّتها للغناء الثوري، بل هي قصائد مكثت في هدوئها، امتثالا لصمت أصحابها، وهى لا تُردد ولا يستدعيها الكثيرون في رفضهم للتطبيع أو إحيائهم للعودة الفلسطينية. أكُلُّ القصائد سواء؟

ثمّة تحولات حدثت في الشعر المصري تجاه القضية الفلسطينية عبر أجيال القرن الماضي، وذلك بديهيًا لاختلاف المآسي والنكبات والظروف السياسية والاجتماعية المحيطة بالبيئة الشعرية المصرية، فتجد الشعر في النصف الأول من القرن الماضي، يَمرُّ بتأريخ الأحداث وصدّمتها ويدعو في أوقات للصبّر وأوقاتٍ أُخرى للجهاد، كما في قصيدة ذكرى وعد بلفور للشاعر أحمد محرم، وقصيدة



"زفرة على فلسطين الدامية" للشاعر محمود حسن إسماعيل، وهما يشجُبان وعد بلفور وتقسيم الأراضي العربية بواسطة الاحتلال، وقصيدة أُخرى تُوعد فلسطين بالحرّية عنوانها "فلسطين الصابرة" للشاعر محمد عبد الغني حسن.

صوت بأرض القدس مشتعل الصدى

كـادت لـه الأكـبـاد أن تـتـوقّـدا

لـمـا تـأوّه صارخـا بـيـن الـورى

أسـيـان يـرزُم تـحـت نـيـران الـعِـدا

قـصـيـدة زفرة على فلسطين الدامية

اتفق الشعراء الجُدد -منتصف الستينيات وما بعدها- مع السالف ذكرهم في تقديم الرثاء للشهداء والمواساة والوعود بالحرّية كما في قصيدتيّ "بكائيّة ليليّة" و"الموت على الأسفلت" للرفيقيّن دنقل والأبنودي، لكنّ الاختلاف كَمُن في نوع وأسلوب الشّعر حيث دخلت السخرية والغضب والتحريض ليس فقط تجاه الصهيونية والاستعمار كما يروق للقُدامى، بل من الأنظمة العربية الحاكمة ذاتها. تميّز ذلك في شعر الأبنودي ونجم ودنقل كما في قصيدة الأخير الشهيرة الساخرة والمتهكّمة "لا تصالح".

نتوه في القاهرة العجوز، ننسى الزمنا

نفلت من ضجيج سياراتها،
وأغنيات المتسولين
تظلنا محطة المترو مع المساء..
متعبين
وكان يبكي وطنا.. وكنت أبكي
وطنا

قصيدة بكائية ليلية - أمل دنقل

تاريخيّا، كانت القضية الفلسطينية قضيّة العرب، فلم تبدأ الأنظمة العربية بالانفكّاك عن قضية تحرير فلسطين إلّا في الستينيات وما بعدها، حيث بدء الأنظمة في جولاتها مع الكيان الصهيوني بشأن السلام، والابتعاد عن الحرب، والبحث عن التسوية، على عكس ذلك لم تنّفك الشعوب لا سيما هؤلاء المنشغلين بقضيّة التحرير من الهيّمنة والاستعمار عن قضية فلسطين.

جمعت الصداقة والعلاقة الشخصية والثقافية الشعراء المصريين بنظرائهم من الشعراء والسياسيين والمُناضلين الفلسطينيين، حيث صداقة الأبنودي مع الشاعر الفلسطيني محمود درويش و الرسام الفلسطيني ناجي العلي، وصداقة أمل دنقل بالمقاتل الفلسطيني مازن جودت أبو غزالة.

كيف وثق الشعر نكبات العرب؟

كان الشعر المصري تجاه فلسطين ليس فقط عاطفةً جياشة ينبُع منها الحزن والألم والمواساة، بل كان مؤرخا ومسجلا بكلماته الأحداث التاريخية التي تلت.

الشعر المصري في النصف الأول من القرن الماضي، حيث طلّ وعد بلفور لتقسيم المنطقة العربية ووجود فلسطين ومصر تحت وصاية بريطانية، بعد ذلك موجات تدّفق يهود العالم لا سيّما أوروبا إلى فلسطين، وبداية حرب العصابات اليهودية والاستيطان على مساكن الفلسطينيين مرورا بالثورات الفلسطينية وصولا إلى النكبة، حيث وثّقت قصائد مثل قصيدة الشاعر أحمد محرم "الشهيد سعيد العاص" وقصيدة الشاعر محمد صادق عرنوس "الشهيد عز الدين القسام" المعارك الملحمية بين قوات القسّام والعصابات اليهودية والجيش البريطاني في عاميّ 1935 و 1936.

أرّخَ أيضا الشعر المصري مرحلتيّن مهمّتين في تاريخ العرب وفلسطين خاصّة، المرحلة الأولى وهي النّكسة التي أدت إلى تحوّلات ساخطة وصادمة تجاه العروبة النظامية المتمثّلة في مشروع الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر، كتب دنقل "بكائيّة ليلية" إبان النكسة، وكتب الأبنودي قصيدة "المسيح". ليكتب الشعر وقتها تاريخ هزيمة العرب، واستيائه من رؤوس الأنظمة العربية الحاكمة.

> ثمّة تحولات حدثت في الشعر المصري تجاه القضية الفلسطينية عبر أجيال القرن الماضي، وذلك بديهيًا لاختلاف المآسي والنكبات والظروف السياسية والاجتماعية المحيطة بالبيئة الشعرية المصرية

والثانية وهى مرحلة السلام مُمّتزجة مع توثيق الانتهاكات الإسرائيلية بحقّ الفلسطينيّن، تنبأ دنقل بالسلام الساداتي مع إسرائيل في قصيدته الشهيرة "لا تصالح" والتي عّبر فيها بشعره القصصي عن سخريّته وتهكّمه من التوجّه نحو السلام مع العدو الذي قتل الطفل والرجل والمرأة والشيخ، ويكتب الأبنودي ونجم مرثيات توثّق اغتيالات وانتهاكات الصهاينة بحقّ الفلسطينيين في قصائدهم المتتالية "الموت على الأسفلت" و"وعد الحر" و"يا فلسطينية"

الشعر يخاطب الجميع

هذا الكمّ الكبير من القصائد والأبيات الشعرية التي كتبها الشعراء المصريون، وُجّهت ليس فقط للمصريين ولا للفلسطينين، بل للعرب كافّة، فتجد أشّطُر الأبيات في قصائد كثيرة تبدأ بـ "يا إخوة العرب"، حيث كانت الحرب في الثلاثينيات والأربعينيات وصولا إلى عام 1973 بين الكيان الصهيوني والعرب. لا تكتفي أيضا تلك الأبيات بتوجيه خطابها إلى شرائح بعيّنها، بل هي تخاطب العوام والمثقفين والطلاب والعمّال والمُجاهدين والأنظمة المحلّية وأنظمة الاستعمار والنظام العالميّ.

احتفظ وتَفاعل بهذا الشعر فئات بعيّنها، ما زالت تؤمن أن قضايا التحرير هي أولويّة إيمانية لديها، لذا وجب عليها حفظ وترديد ما يُغذي هذا الإيمان. من بين تلك الفئات النخب الثقافية والثورية، حيث يظهر ترديدهم للشعر الرافض والداعيَّ للحرية وتحرير فلسطين في مناسبات ثقافية ومحافل شعرية وفي احتجاجات ثورية، كما حدث أثناء احتجاجات الثوار في مصر عام 2011، حينما استدعوا كلمات قصيدتيّ "لا تصالح" و"أحزان عادية" لأبناء الصعيد المصري دنقل والأبنودي.

كما قامت النخب الفنية لا سيّما الفرق الشبابية بدور كبير في إحياء التراث الشعري خاصةً أبيات من أسمّيناهم الشعراء الجدد، حيث أقاموا النوادي والأمسيات الشعرية ليس فقط في مصر، بل في تونس وفلسطين مثل "نادي أحبّاء الشيخ إمام"، وجمعيّة "مريدي الشيخ إمام"

> **كان الشعر المصري تجاه القضية الفلسطينية، يحلم ويواسي ويرفض ويحرّض ويحارب ويتمنى، ربما إعادة إحيائه في الأقطار العربية دلالة كافية على وجوده الأزلي المتنقّل عبر الأجيال.**



كما حوّلوا تراثهم الشعري إلى أغاني جديدة، كما في أغنية الخط ده خطّي لفريق كايروكي.

امتّزج بالنخب الثورية والفنية فئات كثيرة، لم تكن حاضرة بشكلٍ دوريّ، بل تحضر في مناسبات بعيّنها، كالذكريات الثورية وسنويّات الانتفاضة وعلوّ موجات التطبيع، حيث تبدأ تلك الشرائح في التعرّف والمشاركة خاصة على مواقع التواصل الاجتماعي على التراث الشعري المصري الموجّه للقضية الفلسطينية.

من ناحية الضفّة السياسيّة المُتّجهة نحو التطبيع، وقتها من المؤكد أن الشعر سيكون مقاوما لها، لا سيما الشعر الرافض المتمثل في قصيدة دنقل "لا تصالح"، لكن ربما أيضا يكون الشعر بمقاومته تلك مانعا للنظام السياسي، وهذا ما يحدّده طبيعة تحركات ومرونة الأنظمة السياسية مع الوجدان الشعبيّ.

كان الرئيس المصري المخلوع مبارك يعرف جيدا رفض الشعوب العربية وخاصة الشعب المصري للوجود الإسرائيلي حتى بعد سنوات من معاهدة كامب ديفيد، وصرّح بنفسه أكثر من مرّة ناصحا القيادة الإسرائيلية بعدم استفزاز العرب عبر انتِهاك المقدسات الدينية، لكن ربما لا ينتبه النظام السياسي المصري الحالي للوجدان العربي الرافض للتطبيع، ويرى أن صعود ملفّات أخذت محورا رئيسيا على المستوى الداخليّ والخارجي مثل ملفّ الاقتصاد والإرهاب والعلاقات الدبلوماسية المصرية الإسرائيلية ذات أهمية رغما عن الرفض الشعبي لهذا التوجّه.

لا شك أن الشعر قديما قد ساهم في التفاف الوجدان العربي بجميع فئاته الاجتماعية حول قضية تحرير فلسطين، ساعد ذلك أن القضية كانت في مخيال تلك الشعوب قضية متصلة، وتحرير فلسطين كان جزءًا من تحرير الجولان وسيناء وجنوب لبنان، أي تحرير للنظام السياسي العربيّ القائم بحد ذاته. لكن بعد تجزئة القضية واستعادة سيناء وغزة وجنوب لبنان، وإبرام معاهدات السلام وفكّ الاشتباك مع مصر والأردن وسوريا جعلت من غزّة والضفة الغربية منطقتين وحيدتين في محاربة الغول الإسرائيلي.

انفكاك الأنظمة السياسية صاحبه تخلي بعض الفئات المنتمية للدولة وسياساتها عن قضية فلسطين. في مصر تتَعدد الفئات الاجتماعية، منها من يتّبع النظام السياسي في كلّ توجهاته فيما تسمّى الفئة الأبوية والتي تضم الموظفين الحكوميين، وجيل ثورة يوليو 1952، بالإضافة إلى معظم النخب الاقتصادية والثقافية والفنّية التي تتبنى ما يقوله النظام السياسي.

لذا تجد مَن وحّدهُم التراث الشعري هم مَن يسعون بالأساس في إعادة إحيائه مع التفاف صفوفٍ من الساعين للحرية من العمال والطلاب والمثقفين حولهم.

هكذا كان الشعر المصري تجاه القضية الفلسطينية، يحلم ويواسي ويرفض ويحرّض ويحارب ويتمنى. ربما إعادة إحيائه في الأقطار العربية دلالة كافية على وجوده الأزلي المتنقّل عبر الأجيال، ومن ناحية أُخرى فهو علامة استنكارية على عدم وجود شعر جديد يواكب ويؤرخ الأحداث، أو بمعنى أكثر وضوحا المآسي التي تتوالى على العرب والقضية الفلسطينية بسبب سياسات الأنظمة العربية الحالية.



subulmagazine.com
subul.magazine@gmail.com
facebook: subul.magazine